الدكتور فؤاد محمد محمود العارضة

أضواء على طريق الحياة

الناشر
عالم الكتب
٣٨ عبد الخالق ثروت - القاهرة

دار الثقافة العربية للطباعة
تليفون ٩١٦٧٩٤



- ولد صاحب الكتاب عام ١٩٣٦ م في بلدة عرابة الواقعة في منطقة جنين بفلسطين .
- وقد حصل على الدكتوراه من قسم اللغة العربية بكلية آداب جامعة القاهرة عام ١٩٧٥ م .
- وهو الآن يعمل في حقل التربية والتعليم بالكويت .
- وقد سبق له أن أصدر كتابا عنوانه « معنى الوطنية » .

تقديم

لاريب فى أنه بالعقل وحده يتميز الإنسان عن الحيوان ، فلولا العقل لما كان هناك أى فرق بين الإنسان والحيوان ، وليس أدل على ذلك من أن المجنون أكثر ضرراً وإيذاء وأقل درجة من الحيوان نفسه .

ومقياس التفاضل والتفاوت بين الناس العقل والخلق لا الجسم والشكل ، فالعقل والخلق جوهر ولب والجسم والشكل مظهر وقشر .

ولقد أثبت الواقع أن قوة الإنسان فى عقله وخلقه لافى جسمه وشكله ، وأن العقل والخلق هما مصدر السعادة والرخاء وسبيل النجاح والرقى فى الحياة ، وأن الغنى أو الفقر فى العقل والخلق يؤدى إلى الغنى أو الفقر فى المال والثراء .

ولقد أثبت الواقع أيضاً أن المشاكل والشرور التى تقع بسبب فراغ العقول وخواء النفوس وفساد الأخلاق أكثر من المشاكل والشرور التى تقع بسبب فراغ البطون وهزال الأجسام .

وذلك يعنى أنه لايكفى ملء البطن وسمن الجسم لمنع الشر والظلم والعدوان من الوقوع فما يكفى هو ملء البطن والعقل وتهذيب الجسم والنفس .

والعقلاء والفضلاء يهتمون بتنوير عقولهم وتهذيب نفوسهم وتغذيتها بشتى ألوان المعرفة والثقافة أكثر مما يهتمون بملء بطونهم وتهذيب أشكالهم . فالعقول والنفوس تحتاج إلى تغذية وتهذيب وتجميل وتنوير ومداواة كما تحتاج الأجسام والأشكال إلى ذلك .

وكما أن التنوع فى الأطعمة والأشربة أقوى على فتح شهية المعدة من عدم التنوع كذلك التنويع فى غذاء العقل والنفس أبعث على فتح شهية العقل والنفس وأدعى إلى الرغبة فى القراءة والمطالعة . فعدم التنويع والسير على وتيرة واحدة مما يبعث على السأم والملل ، وتنويم الرغبة وإغلاق باب الشهية .

كذلك تحب النفس البشرية التنويع فى الملبس والمسكن ، وفى الألحان والأغانى والألوان وفى أساليب القول والعمل وفى كل شىء . ولا عجب فى ذلك فالحديقة التى تضم أنواعاً متعددة وألواناً متنوعة من الزهر والنبات أجمل منظراً وأكثر بهاء من حديقة لا تنويع فى زهرها ونباتها .

وتمشياً مع هذه الحقيقة نوعت فى موضوعات هذا الكتاب وفى أفكاره ومعانيه فضمنته مقالات مختلفة فى السياسة والوطنية والدين وغير ذلك . وهى وإن اختلفت فى المجرى والاتجاه فإنها تلتقى فى المنبع والمصب فهى من الحياة وإليها .

المؤلف

على قدر قدرة المرء الذاتية
تكون مكانته فى الحياة

المرء الذى يعرف قدر نفسه ويحترم ذاته يعرف الناس قدره ويحترمونه ، القريب منهم والبعيد والصديق والعدو . والمرء الذى لايحترم نفسه لايحترمه غيره ، وفى هذا المعنى قال أحد الحكماء :

« المرء حيث يضع نفسه » . وقال شاعر مجرب :

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها
هوانا بها كانت على الناس أهونا

وقال الشاعر الجاهلى زهير بن أبى سلمى :

ومن يغترب يحسب عدواً صديقه
ومن لا يكرم نفسه لا يكرم

والشخص الذى يثبت أنه كفء قدير وينجح فى ميدان الحياة يقدره الناس ويعجبون به . وبالملاحة والكفاءة الذاتية يدخل المرء فى قلوب الناس جميعاً ، وبالقبح والضعف يصير بعيداً عن قلوب الناس وعقولهم ، والقرب والبعد بالقلب والعقل لا بالجسم والشكل .

كما قال أحمد شوقى :

فإن القرب بالروح وليس القرب بالجسم

فأقرب الناس إليك لايحترمك إذا كنت لاتحترم نفسك ، ولا يعجب بك إذا كنت ضعيفاً فاشلا ، فقد تدفعه القرابة إلى الإشفاق عليك ولكنه لا يعاملك معاملة الند للند . وهناك فرق بين الشفقة والإعجاب . فالناس بفطرهم وطبائعهم يميلون إلى القوى الرحيم ويعجبون بالناجح الفالح ، وينفرون من الفقير فى الكفاءة والقدرة ، ولا يقدرون الفاشل الخائب . ورسول الله محمد ﷺ يفضل القوى الرحيم على الضعيف العاجز فيقول : المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير .

وذلك يرجع إلى أن القوى الرحيم أكثر خيراً ونفعاً للناس من الضعيف .

ولم لا نقول إن الله سبحانه وتعالى هو رمز القوة الراحمة الرحيمة التى لا تساويها قوة أخرى، وهو مصدر القدرة العادلة الحقة التى لاتدانيها قدرة أخرى . فلو كان الله تعالى ضعيفاً لما آمن به الناس ولما عبدوه وأطاعوه .

والقدرة الذاتية للمرء هى مصدر حياته الطيبة الكريمة وأساس كيانه الحر المستقل . وهى السبب فى فلاحه وعلوه . وإذا لم يكن

المرء قادراً على حماية نفسه ووجوده بنفسه وبقوته الذاتية فلا أحد غيره يحميه . والفرد صورة مصغرة الأمة ، والأمة صورة مكبرة للفرد . والأمة التى لاتحترم نفسها ولا تعرف حقها لاتحترمها الأمم الأخرى ولا تعرف لها حقها .

ولكن متى تكون الأمة محترمة معتبرة يحترمها القريب والبعيد ويقدرها الصديق ويهابها العدو؟ تكون الأمة محترمة مصونة إذا كانت ناهضة متقدمة فى ميدان العلم والثقافة والحضارة، ومتسلحة بالأخلاق والآداب، وتصنع سلاحها بنفسها، ومعتصمة بحبل التعاون والاتحاد. وقادرة بنفسها وبقوتها الذاتية على حماية نفسها وصيانة كيانها الحر المستقل وحفظ حقوقها الوطنية والإنسانية . وإذا لم تكن الأمة قادرة بقوتها الذاتية على حماية نفسها وبناء وجودها الوطنى والقومى فلا أحد غيرها يحميها ويبنيها ، وإذا اعتمدت فى حمايتها على قوة خارجية وقعت تحت رحمة تلك القوة التى تحتمى بها ، وفقدت حريتها واستقلالها وإرادتها. وهى حماية عابرة موقوتة ، ولذلك قال الذين جربوا الحياة ، وخبروها وسبروا غورها وعرفوا حقائقها : «من لم يذدعن حوضه بسلاحه يهدم» و«ماحك جلدك مثل ظفرك» «ومن أعتمد على غيره طال جوعه» .

والدعوة إلى الاعتماد على النفس والقوة الذاتية فى الحياة لا تعنى اتخاذ موقف سلبى من الناس ، ولا الانعزال عنهم ولا عدم التعاون

معهم بل تعنى ألا يكون الإنسان عالة على غيره ، وأن يعيش على عمل يده . وأن يملك أمر نفسه وألا يتكل على غيره فى حماية وجوده ، وتعنى كذلك أن يكون مستقل الشخصية حر الإرادة لا إمعة ولا ذيلا لغيره فى تعامله مع الآخرين ويتأثر بالناس ويؤثر فيهم ويأخذ منهم ويعطيهم ، فالحياة أخذ وعطاء وتبادل منافع وتفاعل مع المجتمع . والناس للناس كما قال أبو العلاء المعرى :

الناس للنـاس من بدو وحاضرة
بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

وقال حكيم آخر : ماعاش من عاش لنفسه فقط .

والحياة الحرة الكريمة لها أهلها وأصحابها الأكفاء ، والأمة التى لا تستطيع أن تحمى نفسها بنفسها وبقدرتها الذاتية ليست أهلا للحياة الحرة الكريمة ، ولا تستحق العيش فى كنفها ولا الاستظلال بظلهـا .

ومن مقومات القوة الذاتية التعاون والاتحاد ، والأمة التى يطغى عليها التفرق والانقســـام أمام أعدائها وفى مواجهة الأحداث والأخطار تتجرع كأس الهزيمة والذل وتعجز عن صنع الحياة الحرة المستقلة الكريمة التى لا تؤخذ إلا جهاداً وغلاباً ، وهى من نصيب الأقوياء القادرين ولامكان فيها للمستضعفين المساكين .

وأمة هذه حالها وهذا واقعها لا تستحق أن تعيش حرة كريمة في وطن حر مستقل .

وفى هيئة الأمم المتحدة التى أنشئت لحفظ حقوق الإنسان فى أن يعيش حراً كريماً سيداً فى وطنه وبلاده ، وتطبيق مبادىء الحق والعدل والحرية ، ونشر ألوية الأمن والسلام فى شتى أنحاء العالم نجد أن الدول الكبيرة القوية مسموعة الكلمة محفوظة الحقوق مرعية الجانب، وتسير هيئة الأمم وتوجهها وفق أهدافها ومصالحها. فى حين نرى الدول الصغيرة الضعيفة التى لا حول لها ولا قوة لا يصغى إلى كلامها ولا يعتد بوجودها ولا تصان حقوقها ، وهى تدور فى أفلاك الدول القوية الكبرى .

ومن أقرب الشواهد الملموسة على أثر القدرة الذاتية فى حياة الأمة الانتفاضة الحربية الجزئية التى قامت بها بعض الدول العربية فى حرب السادس من أكتوبر لعام ١٩٧٣ م فالخسائر البشرية والمادية الجسيمة التى ألحقتها القوات العربية بالعدو الصهيونى والانتصار الجزئى الذى أحرزته عليه فى ميدان الحرب والسياسة والاقتصاد بقدرتها الذاتية ردت إلى الأمة العربية كثيراً من الاعتبار والتقدير الذى فقدته فى نكسة ٥ حزيران ١٩٦٧ م . وبدلت من نظرة العدو والصديق والمحايد إليها ، فالعدو أثخن بالجراح وفش انتفاخه وتبخر غروره وتحطم صلفه وغطرسته وتراجع قليلا

عن مواقفه ومواقعه ، وزاد اهتمام الآخرين بالأمة العربية وتقربهم إليها وتقديرهم لها .

وهكذا على قدر ما أظهرت الأمة العربية من قدرة ذاتية فى ميدان حرب أكتوبر لعام ١٩٧٣ أعطاها العدو والصديق والمحايد من التقدير والاهتمام والاحترام . وكلما عظمت قدرتها الذاتية عظم تقدير الصديق والمحايد لها وتخوف العدو منها .

وما مصادر القدرة الذاتية للفرد والأمة ياترى ؟

القدرة الذاتية للفرد منه وإليه وتنبع منه وتصب فيه . وهى تتجسد فى عقل مستنير ورأى سديد وجسم سليم وخلق كريم وسلوك قويم . ويستنير عقل المرء ويرشد أمره ويستقيم سلوكه ويسلم جسمه ويفلح ويعلو فى حياته بالعلم والثقافة والتربية الأخلاقية والنشاط الذهنى والجسمى . ومن الأخلاق العظيمة التى تكسب الإنسان قدرة ذاتية وقوة شخصية الاعتماد على النفس وألا يكون إمعة ولا عالة على الغير ، وعزة النفس وحرية الرأى والشجاعة وقوة العزيمة والإرادة والصدق والأمانة والرحمة والتواضع وما إلى ذلك من أخلاق فاضلة وصفات حميدة .

أما الأمة فإن قدرتها الذاتية تنبع من طاقاتها الروحية والمعنوية وإمكانياتها المادية . ومصادر الطاقات الروحية والمعنوية الوعى

الوطنى والقومى والثقافة البناءة والتربية الوطنية والإنسانية السليمة والأديان السماوية وماتحمله من فضائل إنسانية وأخلاق كريمة وعلى رأسها التعاون والاتحاد والتراحم والتآخى والتضحية والإيثار والصدق والأمانة والعـــدالة الاجتماعية والشجاعة والعزة .

أما مصادر القوة المادية فهى زراعة وارفة الظلال غزيرة الغلال طيبة الثمار، وتجارة رائجة ، وصناعة مدنية وحربية متقدمة متطورة تسد حاجات المواطنين المتنوعة ، وتزود الجيش الوطنى بما يحتاج إليه من أسلحة خفيفة وثقيلة عصرية متطورة . وهى استغلال سليم لما فى باطن أرض الوطن من ثروات معدنية ومائية ونفطية ، واستثمار طيب لما فى نفوس الأجيال والشباب من طاقات حيوية ونشاط وملكات ومواهب ونبوغ .

ومن مظاهر القوة الذاتية القدرة على التأثر بمجرى الحياة الإنسانية والتأثير فيه .

وخلاصة القول أنه بقدر ما لدى المرء من قدرة ذاتية فى الحياة يفلح فى حياته ويقدره الناس ويعجبون به . فإذا كان قوياً رحيما وناجحاً مفلحاً عاش عزيزاً كريماً ، واحترمه الآخرون وهابه الأقوياء الظالمون ، وإن كان قوياً ظالماً اشمأز منه

أهل الخير والبر وآل إلى السقوط والانهيار والخزى والبوار .

أما إذا كان ضعيفاً خاملا وفاشلا خائباً رثى لحاله أولو الحكمة والرحمة والإنسانية وطمع فيه الأقوياء الظالمون .

وبقدر مايكون لدى الدولة من قوة ذاتية تتقدم وتعلو مكانتها الدولية وتتودد إليها الدول الأخرى ويحترمها الصديق والمحايد ويهابها العدو .

السيف والقلم

يقول شاعرنا بشارة الخورى المعروف بالأخطل الصغير :

سيان عند ابتناء المجد فى وطنى
من جرد السيف أو من جرد القلما

من يتأمل هذا القول يدرك أنه لا يخالف الصدق والواقع وأنه يتضمن حقيقة نفيسة ألا وهى أن كلا من القلم والسيف يكمل الآخر فى بناء النهضة والمجد وإعداد القوة والقدرة وصنع الحياة الإنسانية الحرة الكريمة .

فالله سبحانه وتعالى علم الإنسان بالقلم ما لم يكن يعلم . وأوحى إلى أنبيائه ورسله وزودهم بوحى القلم من أديان سماوية وشرائع إلهية ليدعوا الناس إلى الإيمان بالله وحده لا شريك له وليبينوا لهم طريق الخير والحق والصواب من طريق الشر والباطل والخطأ . وليعلموهم مكارم الأخلاق وليتعارفوا ويتعاونوا ويتعايشوا فى إخاء وأمن وسلام .

وقد كانت أول آية قرآنية أنزلت على رسول الله محمد ﷺ قوله جل شأنه : «اقرأ باسم ربك الذى خلق. خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان مالم يعلم »

وقد حمل رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام نور القلم الإلهى وانطلق يعلم الناس ويفتح أبصارهم وبصائرهم ويخرجهم من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى طريق الله، طريق الإيمان والتوحيد والعقيدة والخير والحق والعدل والسلام .

وقد أفلح عليه الصلاة والسلام بعد لأى شديد وجهاد طويل فى اجتثاث مافى عقول قومه العرب ومافى نفوسهم من كفر وشرك بالله وعبادة للأوثان والأصنام وأخلاق وطباع سيئة وعادات وتقاليد بالية ضارة ، وغرس مكانها الإيمان بالله وحده والإخوة الإسلامية السمحة ، وأشربهم مكارم الأخلاق والآداب، وعلمهم ماحسن وطاب من العادات والتقاليد ، فاستنارت عقولهم واتسعت آفاق تفكيرهم بعد جهل وظلمة وضيق ، وتهذبت نفوسهم وسمت أرواحهم بعد فظاظة وانحطاط ، وانصلحت أحوالهم واستقامت أمورهم بعدفساد واعوجاج، وتحابوا وتعاونوا واتحدوا بعد تخاصم وتفرق وانقسام ، وتحرروا واستقلوا بعد خضوع وتبعية للفرس والروم والأحباش ، وعزوا وسادوا بعد ضعف وذلة . ومن ثم تقدموا وارتقوا وأقاموا أعظم دولة وأرقى حضارة فى العصور الوسطى .

وهكذا قامت الدولة العربية الإسلامية فى عهد رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم وفى عهود خلفائه من بعده على القلم والسيف

فقد أدى كل منهما دوره فى تأسيس الدولة وبنائها . وقد حمل رسول الله محمد والذين آمنوا معه القلم الإلهى وراحوا يرسلون أنواره وأضواءه الساطعة فيكشفون طريق الإيمان والهدى والخير وطريق الكفر والضلال والشر . ويدعون الناس إلى السير على طريق الإيمان والنور والحق فلبى النداء والدعوة أصحاب العقول والألباب والفطر الطيبة وبادروا إلى اتباع سبيل الله والرسول . ولكن أصحاب الجهالة الجهلاء والضلالة العمياء والفطر السقيمة أصروا واستكبروا استكباراً ، وأبوا إلا أن يبقوا فى طريق الكفر والضلال والعمى والظلام . وأخذوا يصدون عن سبيل الله ، ويحاولون تقويض منائر الإيمان والخير التى أقامها المؤمنون فى طريق الله ، واقتلاع الغراس الطيبة المثمرة التى زرعها الرسول وأصحابه فى الأرض الطيبة . وقد غالى أهل الكفر والضلال فى عدوانهم على المسلمين وتمادوا ولم يرعووا ولم تجد معهم حكمة ولا موعظة ولا لوم ولا تحذير ولا إنذار ، فاضطر المسلمون إلى التخلى عن مخاطبتهم بلغة القلم لغة أهل العقول والألباب وخاطبوهم باللغة التى يفهمها أهل الجهل والغرور والعناد واللؤم ، ألا وهى لغة السيف والقوة ، وقد هداهم إلى هذه اللغة وذلك الأسلوب — القلم فقال الله تعالى لهم «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين » . وقال أيضاً جل شأنه : «يا أيها الذين آمنوا قاتلوا

الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين » .

وبين لهم القلم أن المبادىء والأديان والأفكار لاتنشر بين الناس ولا يمتثلونها بالقوة والإكراه بل بالحكمة والموعظة الحسنة والمناقشة والمجادلة بالتى هى أحسن ، لأن مايفرض على الناس بالقوة والإرغام لا يلبث أن يزول وينهار بزوال وانهيار القوة التى فرض بها . فقد قال تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » . وقال جل شأنه : «لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى» . وقال سبحانه وتعالى : « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » .

ومايئشر بالرضا والرفق والإقناع يمكث فى الأرض وينبت وينمو ويؤتى ثماراً طيبة ويبقى نامياً مثمراً .

وذلك يدل على أن السيف استعمله المسلمون للدفاع عن أنفسهم ورد العدوان عنهم وشق طريق انتشار الإسلام وإزالة العقبات من دربه . ولم تكن الفتوحات العربية الإسلامية فى حقيقة أمرها وفى دوافعها وبواعثها وأهدافها ومراميها غزواً استعمارياً ولاعدواناً على حريات الشعوب واستقلالها ، إذ لم يرغم أحد غير مسلم على حمل الإسلام واعتناقه . وهنا ينبغى التمييز بين نشر الإسلام وتطبيقه وبين الفتوحات الإسلامية، فبقوة السلاح فتح طريق انتشار الإسلام وعبد ، وبنور القلم أضىء الطريق وأنير . . .

ويلاحظ أن معظم البلاد التى شملتها الفتوحات الإسلامية قد انصهر فى بوتقة الإسلام وانصهر بعضها الآخر فى بوتقة العروبة والإسلام . وذلك يرجع إلى أن الفتوحات الإسلامية لم تكن غزواً استعمارياً ولا احتلالا امبريالياً استغلاليا بل كانت رسالة إنسانية ودعوة إلى نشر الإسلام ومبادئه السامية القائمة على الحق والخير والعدل والإخاء والمساواة والحرية والسلام . فلو كانت غزواً استعمارياً لانهارت بانهيار القوة التى حملتها ولما تركت أثراً خالداً فى حياة المجتمعات التى دخلتها وفتحتها ولما طبعت أهلها وشعوبها بطابع الإسلام الخالد . فالقوة التى لا يواكبها القلم تكون قصيرة العمر وهشة سريعة الانكسار . ويوضح ذلك غزو المغول والتتار الأعمى الهمجى للعالم الإسلامى إذ سرعان ما تقوض وانهار واحتوى المجتمع الإسلامى التتار الغزاة الجهلة الذين لم يكونوا يحملون مع سلاحهم وغزوهم علماً ولا حضارة ولا رسالة إنسانية ، وذابوا فيه .

ومن قبيل الغزو المغولى الغزو الصليبى للشرق العربى فلم يلبث أن انحسر ظله وانمحت آثاره لأنه كان غزواً استعمارياً وحشياً لا إنسانياً ، لا يحمل علماً ولا أخلاقا . وكذلك الاستعمار الغربى المعاصر للشرق ، فهو غزو استعمارى استغلالى تجرد من المعانى

الإنسانية والمبادىء السامية من رحمـــة وعدل وإخاء ومساواة وحرية ونحو ذلك ، ولذلك أخذ فى الانهيار والتلاشى .

ومن يقرأ تاريخ الثورات الإنسانية العالمية كثورة الإسلام العظمى والثورة الفرنسية والثورة الشيوعية فى روسيا والصين يعرف أن الثورات المسلحة العملية تسبقها دائماً ثورات فكرية ونفسية . والثورة المسلحة قام بها السيف والسلاح والثورة الفكرية والنفسية من نتاج القلم . والقلم يثير الحرب الباردة والحرب المعنوية النفسية ، والسيف يشعل نار الحرب الساخنة الملتهبة المحرقة .

ويلاحظ أن المسلمين يتراخون عن خوض ميدان الجهاد والقتال والكفاح المسلح عندما تضعف فى نفوسهم ما يبثه القلم المسلم من معانى الإيمان والثورة على الظلم والباطل والتضحية والفداء والاستشهاد ، ويتفرقون وينقسمون على أنفسهم قولا وعملا حينما تخمد فى كيانهم روح التعاون والاتحاد والاعتصام بحبل الله تعالى . والقلم المؤمن الثائر يبعث هذه الروح ويغذيها وينميها .

وذلك يدل على أنه بالقلم والسيف تنهض الشعوب وتبنى الدول وتتقدم الأمم وترقى فلا نهضة ولا قوة ولا مجد بالقـــلم وحده ولا بالسيف وحده بل بالاثنين معاً .

ويدل كذلك على أن القلم والسيف يكمل كل منهما الآخر فى بناء المجتمع الناهض المتقدم وصنع الحياة الإنسانية الحرة الكريمة، فالقلم يوجه ويرشد إلى الطريق السليم وينير السبيل ويحدد الهدف ويضع الخطة ، والسيف يعمل بتوجيه القلم وبإرشاده ويسلك الطريق الذى يرسمه له القلم ويحقق الهدف الذى عينه له .

والقلم يبنى صرح العلم والحضارة والمدنية والسيف يحرس هذا هذا الصرح ويحميه من خطر الغزو والعدوان .

والقلم يضع القوانين والدساتير والقرارات والسيف يقوم بتنفيذها وتطبيقها. والقلم يضع نظام الدولة والسيف يحرسه ويحميه.

والقلم لمقارعة الحجة بالحجة والمنطق بالمنطق ودحض الباطل والافتراء ولحل القضايا التى تحل فى ساحات المحاكم ودور القضاء وهو لحرب الدعاية والحرب الباردة النفسية .

والسيف لمخاطبة الذين لا يفهمون لغة العقل والمنطق ولحل القضايا التى لا تحل إلا فى ميادين الحرب والقتال وهو للحرب الساخنة المشتعلة .

وكم يكون غبياً متخاذلا من يخاطب بلغة القلم ناسا لا يفهمون إلا لغة السيف ، وكم يكون همجياً بربرياً من يخاطب بلغة السيف ناسا يفهمون لغة القلم .

والسيف يعمل تحت رعاية القـــلم وبتوجيهه وإرشاده وعلى ضوئه وهديه . والسيف الذى يعمل بلا قلم يكون وحشا مفترسا وسفاكا سفاحا وإرهابياً مجرما ويخبط خبط عشواء ويسير كالأعمى بلا معنى ولا محتوى ولا هدف وسرعان ما يتكسر ويتحطم.

والقلم ينير العقل المظلم ويهذب النفس الشائكه ويبعث الضمير الحى ويوقظ النائم ويحرك الجامد الخامد ويشد العزيمة وينفخ فى الروح الهامدة ويشفى القلوب المريضة ويشعل فى الصدور نار الحماس والحمية والعزة ويحضر الهمجى ويمدنه .

والقلم يحرر النفوس والأرواح من أغلالها وقيودها ، وبنور القلم ينجلى ظلام الجهل والأمية وتتبدد أشباح الأوهام والخرافات والأساطير . أما السيف فإنه يحطم قيـــود الأيدى والأرجل . وتحرير العقول والنفوس أصعب من تحرير الأيدى والأرجل . ولا فائدة من تحرير الأجسام إذا كانت العقـــول والنفوس مقيدة مستعبدة .

والقلم يعلم الجاهل ويقرىء الأمى ويرشد الضال التائه ، وينير الطريق ، ويعمر الخراب ويشيد العمران ويحيى ميت الأحياء ، ويبين طريق الحق والخير والعدل والصواب من طريق الباطل والظلم والخطأ ، ويدعو إلى اتباع الطريق الأول واجتناب الطريق الثانى . ويكشف عن حقائق الأشياء وأسرار الحياة .

ومن شأن القلم الدعوة إلى تصافى النفوس وتآلف القلوب وتصافح الأيدى والاعتصام بحبل الله جميعاً وبناء صرح التعاون والاتحاد ، ومعروف أنه لا قوة ولا تقدم ولا فلاح لأى مجتمع إلا فى حمى التعاون والاتحاد .

والقلم الصادق المستنير يحارب الجهل والفقر والمرض والفساد وهذه الأوبئة والآفات الاجتماعية تجعل الشعب مريضاً ضعيفاً عاجزاً عن حماية نفسه من أى خطر خارجى داهم .

وما يعيب هو أن يقول الإنسان أو يكتب قولا فارغا خالياً من المعانى السامية والأفكار النيرة ، أو يكتب كلاما لا معنى له ولا طعم ولا هدف .

وعيب على الإنسان أن يقول مالا يفعل أو يفعل ما لا يقول ، وألا ينفذ أقواله وقراراته ، ورب قول أبلغ من فعل ورب كلام أغلى من الدر والذهب . ورب لسان أنفذ من يد .

المبادىء والشخصيات

لا يكفي فى إحقاق الحق ونشر العدالة إصدار القرارات الصائبة والقوانين العادلة والدساتير الديمقراطية . بل ينبغى أن تتوافر مع ذلك الشخصيات النبيلة التى تتمتع بالأخلاق الكريمة والضمائر الحية والعقول المستنيرة . فالقوانين والدساتير والنظريات تبقى حبراً على ورق مالم يقم أناس أكفاء عقلا وخلقا بتطبيقها ونشرها . ويساء استعمالها إذا تولى تنفيذها أشخاص يفتقرون إلى الكفاءة فى العقل والخلق والثقافة . فلا يوجد فى العالم دستور أو قانون ينص على الظلم والاستبداد، ومع ذلك نجد استبدادا وظلماً فى بعض المجتمعات مع أن دساتيرها وقوانينها تنص على العدالة والديمقراطية ، ويرجع ذلك إلى الظلم والاستبداد الكامن فى نفوس القائمين على تطبيق تلك الدساتير والقوانين . فالظلم وحب السيطرة والاستبداد من شيم النفوس البشرية . وقديماً عبر المتنبى عن ذلك بقوله :

والظلم من شيم النفوس فإن تجد
ذا عفــــة فلعـــلة لا يظلم

وهذا يعنى أن الإنسان حيوان بطبعه وغريزته ولا يصير

إنسانى الطبع والنزعة إلا بالتربية والتهذيب ، وليس أدل على ذلك من تصرفات الجاهل الهمجى فسلوكه وتصرفاته لا تسمو أحيانا على سلوك الحيوان ، فالذى يعف عن الظلم والاستبداد والتسلط إنما يفعل ذلك لعلة وسبب . وهذه العلة إما أن تكون الخوف من عقاب الله تعالى إذا كان يؤمن بالله ويخشاه . وإما أن تكون الخوف من عقاب القانون والناس إن كان جاهلا . وإما أن تكون الاشمئزاز من الظلم والشر إذا كان إنساناً راقياً مهذباً يحب لغيره ما يحب لنفسه . وإما أن تكون الحرص على نفسه من أن يصيبها ظلم أو شر إن كان عاقلا حكيما يدرك أن من يظلم يظلم ، وأن من يفعل شراً يلق شراً ومن يرحم يرحم ومن يعمل خيراً يجد خيراً ومن عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها .

وذلك يعنى أنه من الخير للمرء ومن مصلحته الشخصية أن يفعل الخير ومن الشر له أن يفعل الشر ، لأن من يعمل خيراً يلق خيراً ومن يعمل شراً يجد شراً عاجلا أو آجلا فى الدنيا والآخرة . وفعل الخير لا يضيع عند الله والناس . وذلك مصداق لقول الحطيئة :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه

لا يذهب العرف بين الله والناس

يفهم مما تقدم أن ما فى العالم فى كل زمان ومكان من خير وشر وعدل وظلم وجمال وقبح إنما هو من صنع الإنسان نفسه، فالإنسان

هو كل شيء فى هذه الحياة الدنيا . وهو الذى يجعل الحياة الدنيا جميلة طيبة وهو الذى يجعلها قبيحة سيئة . وأعدى عدو للإنسان هو الإنسان نفسه ، والدليل على ذلك أن الإنسان هو الذى يرتكب الجرائم ويثير الحروب ويفعل الشر والآثام ويعتدى على أخيه الإنسان ويسلبه حريته واستقلاله وينهب ماله وأرضه .

وانحطاط الأخلاق فى أى زمان ومكان لا يعنى أن الأخلاق نفسها انحطت إنما يعنى ابتعاد الناس عنها وهجرهم لها . وكذلك النار والسلاح وما شابههما من أشياء مادية فإنها تصلح للخير والشر، واستعمالها فى النفع والضرر يتوقف على أخلاق الذين يستعملونها . وتطور الحضارة الإنسانية والعلوم والفنون والآداب مستمد من تطور الناس فى كل زمان ومكان .

والفرق بين الإسلام فى عصور ازدهاره وعصور انتكاسه إنما هو فرق بين مسلمين ومسلمين ، ففى العصور التى ازدهر فيها كان مسلمون يعملون به وفى العصور التى انتكس فيها كان مسلمون لا يأخذون به ، فالإسلام الذى جاء به الرسول محمد صلى الله عليه وسلم من عند الله سبحانه وتعالى لم يتغير فى أوقات ازدهاره أو انتكاسه ، ولا يزال حتى اليوم كما أنزله الله جل شأنه على رسوله الأمين محمد عليه الصلاة والسلام . وما علق به وبغيره من الأديان

السماوية من بدع وخرافات وتأويل وتحريف يرجع إلى الناس أنفسهم ولا يرد إلى الأديان نفسها .

ولا ريب عندى أن حاجة الناس اليوم فى عصر القنابل الذرية والهيدروجينية إلى الأديان السماوية أكثر من حاجتهم إليها فى أى وقت مضى لأن الأديان السماوية فى جوهرها وحقيقتها أخلاق كريمة ومبادىء إنسانية ، وإذا ما تجرد الإنسان من المعانى الإنسانية والأخلاق السامية صار حيواناً مؤذيا ووحشا ضارياً واستعمل النار والطاقة الذرية وما إلى ذلك من طاقات وأشياء مادية فى الشر والحرب والتدمير بدلا من استعمالها فى الخير والسلم والتعمير . وما نراه اليوم فى العالم من ظلم وشر وباطل يرجع إلى اضمحلال المعانى الإنسانية وتدهور الأخلاق الكريمة كالعدالة والرحمة والحق ، والحياة بلا معان إنسانية ولا قيم أخلاقية تصير جحيما لا يطاق ، وتعنى الظلم والشر والباطل والاستبداد والاستغلال وما إلى ذلك من مفاسد ورذائل .

وخلاصة القول أن حاجة الناس إلى شخصيات نبيلة صالحة لا تقل عن حاجتهم إلى المبادىء الإنسانية السامية والقوانين العادلة والدساتير الديمقراطية . فالمبادىء والدساتير والقوانين تبقى حبراً على ورق ولا تؤتى أكلها إلا بأشخاص أكفاء يقومون بحملها

وتطبيقها . فمبادىء بلا ناس يحملونها ويطبقونها كأموال مجمدة مدفونة أو كبذور غير مزروعة فى التربة . وأناس بلا مبادىء كالورق الخالى من الكتابة أو كأرض بور غير مزروعة .

وذلك يعنى أن تحقيق الحق والعدل يتطلب مبادىء وشخصيات كما أن الزرع لا يكون إلا ببذور وتربة وزراع .

المثل العليا والمثاليات

كثيراً ما تدعو بعض المسلمين إلى الالتزام بما أمر الله سبحانه به الناس فى كتابه العزيز القرآن الكريم من أخلاق كريمة وآداب عالية وسلوك سام ، وبما نهاهم عنه من صفات ذميمة ورذائل مهينة وأعمال سيئة ، وتدعوهم إلى الاقتداء برسول الله محمد (صلى الله عليه وسلم) وبأصحابه الأجلاء من أمثال أبى بكر وعمر وعلى وعثمان وخالد وحمزة وأبى عبيدة وغيرهم رضى الله عنهم أجمعين ، والتخلق بأخلاقهم السامية والاتصاف بصفاتهم العظيمة ، فيقولون لك أن ما تدعو إليه مثاليات خيالية ومثل عليا غير واقعية لا يمكن تحقيقها فى عصرنا هـذا عصر العلم والحقيقة والواقع . وما هى المثاليات والمثل العليا يا ترى ؟ إنها الأخلاق والآداب والفضائل والمعانى الإنسانية من صدق وأمانة ووفاء ومحبة ورحمة وتسامح وعدل وتضحية وإيثار وتواضع وشجاعة ونحو ذلك . ومن المثل العليا والمثاليات قوله تعالى: «إنما المؤمنون إخوة» «وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما» «ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة» و «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم، واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين»

و « ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » و « يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور » و « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » . وتتجلى المثل العليا والمثاليات فى السنة النبوية الشريفة ، ومنها هذه الأحاديث الشريفة : «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه » و« مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » و « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » و« من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وهذا أضعف الإيمان » و « إن من أعظم الجهاد كلمة حق تقال عند سلطان جائر». والأقوال الحكيمة الآتية تشرق منها أنوار المثاليات والمثل العليا « الحلم سيد الأخلاق » و « والظلم مرتعه وخيم » و « إذا دعتك قدرتك إلى ظلم الناس فتذكر قدرة الله عليك » و « من يرحم يرحم » و « الحسود لا يسود » ونكتفى بذكر هذا القدر من الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة والأقوال الحكيمة فلا يتسع المجال لذكر المزيد منها .

والمتأمل المتفكر فى الفضائل والأخلاق والقيم الإنسانية تدرك أن حياة الناس لا تصير جميلة طيبة ولا يظلها الأمن

والسلام والإخاء الإنسانى إلا بالعيش فى كنفها وحماها وبالاستظلال بظلالها الوارفة، وكذلك فإن حاجة عقولهم ونفوسهم وأرواحهم إليها لا تقل عن حاجـــة بطونهم ومعدهم وأجسامهم إلى المأكل والمشرب والملبس والمسكن والدواء، وإنهم إذا تجردوا منها ونبذوها فسدت حياتهم وتلبدت سماواتهم بسحب البغضاء والعداء وساد دنياهم شريعة الغاب، فيزداد إيماناً بقول أحمـــد شوقى رحمه الله :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت
فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وبقـوله :

وإذا أصيب القوم فى أخلاقهم
فأقم عليهم مأتما وعـــويلا

وبقـوله :

وليس بعامر بنيانـ قوم
إذا أخلاقهم كانت خـــرابا

فالأخلاق والآداب والفضائل هى روح الحياة الإنسانية وربيعها وحسنها وجمالها وطعمها الحلو ومذاقها الطيب اللذيذ . وما نسمعه ونراه اليوم فى العالم من ظلم وباطل وعدوان وجرائم

وشرور وما يشيع فى دنيا الناس من قلق وخوف وكدر وجشع واستغلال واحتكار سببه افتقار الناس فى علاقاتهم ومعاملاتهم إلى القيم الاخلاقية والمبادىء الإنسانية والمثل العليا، وتأملها يبين أن وجه الخيال فيها هو أن يتمسك بها الإنسان تمسكا كاملا تاما مائة فى المائة أو أن يلتزم بها كل الناس فى حياتهم وسلوكهم ، وفى الواقع والحقيقة أنه يمكن أن يعمل بها المرء ويسير عليها قدر جهده واستطاعته . وفى مقدوره أن يأخذ بمعظمها إذا خلصت نيته ونبل مقصده وصح عزمه وصدق إيمانه وعلت همته .

ويمكن كذلك أن يتبع أكثر الناس سبيلها . والمتأمل المنمعن فى واقع الحياة البشرية قديماً وحديثاً يتبين له أنه بالتحلى بالمثل العليا والمثاليات والعمل بها تصلح أحوال الناس وتستقيم أمورهم وتطيب حياتهم وينعمون بالامن والسلام والوئام ويتقدمون ويعلون ويسمون . فكلما ابتعدوا عنها ابتعدوا عن الحياة الطيبة السعيدة . ويعرف كذلك أن المصلحين وقادة الأمم وبناة الدول والأبرار الصالحين من أصحاب المثل العليا والمثاليات والأنبياء والرسل هم أكثر الناس تحليا بها وامتثالا لها . ورسول الله محمد (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه الاجلاء تجلت فيهم المثل العليا والمثاليات فى أجمل صورها وأسمى معانيها وبجهودهم المخلصة الصادقة وعلى أيديهم القوية الرحيمة البيضاء انتشر الإسلام فى

أرجاء العالم، وبنيت الدولة العربية الإسلامية التي امتدت إلى فرنسا غربا وحدود الصين شرقا . وشيدت الحضارة العربية الإسلامية ، حضارة العصور الوسطى بلا منازع . وقد أخذت الدولة العربية الإسلامية العظمى تضعف وتمرض وتنحل وتنهار في عهود المسلمين الذين تحللوا من مثل الإسلام العليا ومثالياته السامية وتخلوا عن أخلاقه العظيمة وآدابه الرفيعة . والامة العربيــــة اليوم ضعيفة متخلفة وممزقة منقسمة على نفسها لابتعادها عن الإسلام الصحيح بمثله العليا ومثالياته العلوية وأخلاقه الكريمة .

القوانين والأخلاق

يضع المشرعون القوانين المتنوعة لحماية المجتمع من الفساد والرذيلة والجريمة ولتنظيمه وإصلاح أحواله ، ونشر الحق والعدل والسلام فى ربوعه . ومع ذلك تقع جرائم ومفاسد وأباطيل يرتكبها البعض من عامة الناس وخاصتهم ، وفى بعض الأحيان يخالف القوانين الذين وضعوها والمسئولون عن حمايتها وتطبيقها وتنفيذها . وبعض الجرائم تقع بدافع من الفاقة والحاجة والجوع والعطش ، وبعضها يدفع إليه الجشع والطمع والأنانية ، وبعضها يرتكب بسبب الطيش والغرور ، ومنها مايقع فى غياب الذوق السليم والخلق الكريم والضمير النبيل . كل دساتير الدول وقوانينها تنص على العدالة والحرية والديمقراطية ، ومع ذلك نرى دولا تسودها الحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية لأنها تعمل بدساتيرها وقوانينها وتسير على هداها وتلتزم بتطبيقها أخلاقياً وأدبياً . ونرى مجتمعات أخرى تعانى من الإرهاب والاستبداد والظلم والحكم الفردى والفوضى ، وذلك يرجع إلى افتقار القائمين على الدساتير والقوانين والمكلفين بتنفيذها والعمل بها إلى المثل العليا والأخلاق الكريمة والضمائر الحية والوعى الصحيح .

والقاضى الذى يفتقر إلى الضمير الحى والخلق الكريم يمكن أن يتلاعب بالقانون وفق الهوى والغرض والمصلحة الشخصية. ويمكن أن يرتشى وينحرف عن طريق الحق والإنصاف ويلبس الحق باطلا والباطل حقاً. والشاهد الخالى من الضمير يمكن أن يدلى بشهادة كذب وزور وباطل، أما صاحب الضمير الحى فلا يشهد إلا بالحق والعدل ولا يغريه المال بشهادة كاذبة باطلة. وجميع القوانين تحرم الاستغلال والاحتكار والاستعباد ومع ذلك نجد استغلالا واحتكاراً واستعباداً. والباعث على ذلك الجشع والطمع والأنانية، والجشع الأنانى تراه سىء الخلق والسلوك وعديم الضمير إذ لو كان ذا خلق كريم وضمير حى لما مارس الاحتكار والاستغلال. والقوانين الدولية وميثاق الأمم المتحدة وقرارات مجلس الأمن الدولى تنص على حقوق الإنسان وتدعو إلى حق الإنسان فى تقرير المصير والعيش فى حرية وأمان وتنهى عن الظلم والعدوان والاستعمار، ومع ذلك نرى الدول القوية الاستعمارية تعتدى على الشعوب الضعيفة وتحاول استعمارها، وتتنكر للقوانين الدولية وميثاق الأمم المتحدة ومبادئها الإنسانية. والأقبح من ذلك وأمر هو أن هذه الدول الاستعمارية ترتكب ماترتكب من مظالم وأباطيل وجرائم واستعمار باسم الحضارة والمدنية والعدالة والنظام والقانون. وما أكثر الأباطيل والمظالم والجرائم التى ارتكبت

وماتزال ترتكب باسم الحق والعدل والحرية والحضارة . وذلك يرجع إلى تنكر هذه الدول الاستعمارية لمبادىء الحق والعدالة والمعانى الإنسانية والقيم الأخلاقية . ومن لايحترم الأخلاق والمبادىء الإنسانية لايحترم القوانين والمواثيق الدولية لأن القوانين العادلة منبعها الأخلاق الكريمة والمبادىء الإنسانية ، وهدفها إقامة الحق والعدل ونشر الأمن والسلام. يفهم مما تقدم أن القوانين والدساتير الوضعية لاتمنع وقوع الظلم والعدوان والفساد والجريمة فى السر والعلانية ولكنها قد تخفف من وقوعها ، وقد تمنع حدوث بعضها فى وضح النهار وعلى مرأى من الناس. فما يمنع وقوعها فى السر والعلانية هو الخلق الكريم والضمير الحى وتقوى الله وحده . ومايحدث فى السر والخفاء أدهى وأمر مما يقع فى الجهر والعلانية . ولاتطهر الأرض من الشر والفساد والرذيلة إلا بطهارة النفوس والقلوب ونظافة العقول من نوازع الفساد والإثم وأفكار السوء والشر . ولافائدة من وضع القوانين العادلة والدساتير الديمقراطية إذا كانت النفوس مشربة بروح الشر والفساد والاستبداد .

وهذه هى الحكمة والسر فى تركيز الأديان السماوية على إيجاد النفوس الطاهرة والقلوب الصافية والأدمغة النظيفة والعقول الواعية المستنيرة ، وبعث الضمير الحى وتقوى الله فى نفس الإنسان .

ولا شيء ينهى المرء عن اقتراف الآثام والرذائل والشرور ويأمره باتباع طريق الحق والعدل والفضيلة كالضمير الحي وتقوى الله تعالى. ولا تؤتى القوانين العادلة أكلها مالم يقم على تنفيذها وتطبيقها أناس يتحلون بعقول مستنيرة وضمائر حية ونفوس طاهرة وقلوب مؤمنة.

ويلاحظ أن الخلق الكريم من ثمار العقل السليم والتربية الصالحة والثقافة النافعة لأن عاقبة الخلق الكريم والسلوك السليم الخير والسلامة والفلاح . وعاقبة سوء الخلق والانحراف الضرر والفشل والهلاك . والعاقل يسلك طريق الخير والصلاح والفلاح ويحيد عن طريق الشر والفساد والهلاك. وأما الجاهل فإنه لا يعرف ماينفعه ولا مايضره ويتبع سبيل الشر والضلال والخطر من حيث يدري أو لا يدري. وخلاصة القول أنه بالأخلاق الكريمة والضمائر الحية يتحقق العدل والحق والفضيلة أكثر مما يتحقق بالقوانين والدساتير القرارات ، ولا تؤتى القوانين والدساتير أكلها ولا تثمر إلا في المجتمعات التي تزدهر فيها الأخلاق والآداب والفضائل الإنسانية . فالأخلاق والآداب هي القوانين الطبيعية السماوية التي بها وحدها ينتصب ميزان الحق والعدل ويسود الأمن والنظام والسلام .

الأثرة والأنانية آفة التعاون والاتحاد

تعنى الأثرة والأنانية أن يحب المرء نفسه حباً مفرطاً ويختصها بأحسن الشيء دون غيره .

والإنسان أنانى بطبيعته وغريزته ويدل على ذلك الطفل فهو أنانى لا يقصر فى أن يستأثر بالنفع وحده دون غيره من إخوته وأصحابه، وكلما كبر الطفل وتقدمت سنه وازداد وعياً ونضجا خفت حدة الأثرة والأنانية فيه وضعف صوتها فى نفسه حتى إذا ما نضج تفكيره واتسع أفقه وبعد نظره وكرمت نفسه خلع عنه رداء الأثرة والأنانية وارتدى لباس التضحية والإيثار ونكران الذات.

وكذلك الإنسان البدائى الجاهل تراه أنانياً لا يهمه إلا نفسه ولا يعمل إلا لمصلحته الشخصية، ويدل على ذلك استفحال الأنانية والأثرة فى المجتمعات الجاهلة المتخلفة التى يخيم عليها ظلام الأمية والجهل ، وازدهار التضحية والإيثار وتقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة فى المجتمعات الواعية الراقية .

وذلك يعنى أن الأثرة والأنانية تنمو فى نفوس الجهلاء واللؤماء وتذبل وتموت فى نفوس أولى الوعى والألباب والأخلاق الكريمة ، فكلما ازداد وعى المرء واستنار عقله وتعمق تفكيره

قلت أثرته وأنانيته ، فالعاقل المبصر أكثر تضحية وإيثاراً من الجاهل الأعمى ، والطفل الصغير أشد أنانية من البالغ الكبير .

والحيوان أنانى بطبيعته وغريزته ، والسفيه تطغى عليه الأثرة والأنانية ، إذن الأثرة والأنانية تثور وتطغى فى الطفل الصغير والجاهل الأعمى والسفيه اللئيم والحيوان الأعجم .

وبالتربية الوطنية والإنسانية والتنشئة الدينية السماوية وبالتحلى بالثقافة البناءة والأخلاق والقدوة الحسنة يتحرر المرء من عقدة الأثرة والأنانية ويسلك طريق التضحية والإيثار .

والمتأمل المتفكر يدرك أنه يتولد عن الأثرة والأنانية مساوىء ضارة ورذائل وبيلة وتسوق صاحبها إلى شرور وجرائم كثيرة وأنها آفة التعاون والاتحاد وسوس الوحدة الوطنية ومعول البناء الاجتماعى وبذت البلايا والمصائب .

فما يحدث بين الأفراد والجماعات والدول من نزاع وصراع مبعثه الأثرة والأنانية ، فالصراع الذى وقع بين الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه ومعاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه سببه أنانية معاوية وطمعه فى الخلافة .

ومثله الصراع الذى حدث بين الأخوين الأمين والمأمون على الخلافة، فقد كانت أنانية الخليفة الأمين هى الشرارة التى أشعلت نار الفتنة بين الأخوين ، وبدافع من الأثرة والأنانية تنازع الأمويون

والعباسيون والعلويون وتقاتلوا على منصب الخلافة الإسلامية ، ولما نجح العباسيون فى انتزاع الخلافة لهم فصل الأمويون الأندلس عن جسم الدولة الإسلامية وأقاموا دولة عربية أموية مستقلة . ومن ثم فعلت الأنانية فعلها فى إضعاف الدولتين العباسية فى المشرق والأموية فى الأندلس، وفى انحلالها وتمزيقهما إلى دويلات وإمارات صغيرة ضعيفة فاجتاح الدولة العباسية الغزاة الطامعون من مغول تتار وصليبيين وضاعت الأندلس من أيدى العرب المسلمين. والاستعمار بمختلف أشكاله وصوره وألوانه من نبات الأنانية وثمارها، ولكنها أنانية التعصب "قومى" "عنصرى"، فالدولة الاستعمارية تستأثر لنفسها وحدها بخيرات البلد الذى تحكمه وتستعمره وتحرم أهلها منها .

ويتولد عن الأنانية والأثرة الطمع الجشع والحسد والغيرة والشح والغدر والخيانة والسرقة والانتحال وتفضيل المصلحة الخاصة على المصلحة العامة .

فالطماع الجشع لا يقنع بما فى يده وجيبه بل يطمع فيما فى يد غيره وجيبه ، يدفعه إلى ذلك حرصه على أن يضع يده وحدها على الخير دون غيره ، والحسود الغيور يتمنى أن ينتقل إليه وحده ما يراه عند غيره من نعمة وخير، وهو يحب لغيره ما لا يحب لنفسه، وعلة ذلك الأثرة والأنانية .

وكذلك الغادر الخائن يغدر ويخون فى سبيل منفعته الذاتية التى يضعها فوق أية منفعة أخرى ، والمنتحل المدعى يسرق مايملك غيره من خير وفضل وينسبه إلى نفسه بدافع من حبه لنفسه وخصها وحدها بالخير والفلاح .

وكم جر الطمع إلى معارك ومهالك ، وتحل العداوة والبغضاء والتفرقة حيث يحل الحسد والجشع والطمع ، وما أكثر ضحايا الطمع والحسد والغدر والخيانة، وما أكثر الأسر التى دب فى كيانها الحسد والطمع فأصابها الانحلال وتقطيع الأوصال وانفراط العقد وانهيار البنيان ، ومن ثمار الأثرة والأنانية الوصولية والانتهازية والاستغلال والاحتكار والاستعباد والظلم والاستبداد فى الحكم والسلطة .

فالتاجر الجشع الذى يحتكر ويستغل إنما يفعل ذلك بدافع من الأثرة والأنانية ، والحاكم الذى يطغى ويستبد فى الحكم والسلطة إنما يدفعه ذلك إلى شهوته فى الاستئثار بالحكم والسلطة على غيره ولا يحب أن يشاركه غيره فى الحكم .

وذلك يعنى أن الأثرة والأنانية رذيلة الرذائل وأقبح القبائح وهى مرض أخلاقى مهلك وداء اجتماعى وبيل ، والمرء الأنانى يعزل نفسه بأنانيته عن الناس ويخسر النفع الذى يريد الاستئثار به على غيره ، فهو يأخذ ولا يعطى ، ويقبض ولا يدفع ويشد ولا يرخى ،

ومن يأخذ ويعطى ويقبض ويدفع ويشد ويرخى يربح ويكسب، ومن يأخذ ولا يعطى ويقبض ولا يدفع ينحبس عنه الغيث والثمر، فيحرم ويخسر، فكلما تخلى المرء عن الأثرة والأنانية وآثر المصلحة العامة على مصلحته الخاصة وضحى فى سبيل الله والأمة والوطن وأنكر ذاته عظم نفسه ورفع شأنه ونال خيراً كثيراً . ولا يمكن إقامة صرح التعاون والاتحاد ولا رفع علم النهضة والفلاح فى مجتمع مصاب أفراده بالأثرة والأنانية والنزعة الفردية وتباع فيه المصلحة العامة بالمصلحة الخاصة، فسلامة الفرد من سلامة المجتمع والمصلحة الخاصة مرتبطة بالمصلحة العامة، فإذا سلم المجتمع سلم الفرد وإن ضاع المجتمع ضاع الفرد وإن حفظت المصلحة العامة حفظت المصلحة الخاصة وإن أهدر دم الفرد أهدر دم المجتمع إذ لا فلاح ولا قوة لمجتمع شخصية الفرد فيه ذابلة زاوية وكرامته مهانة ومصلحته ضائعة مأكولة .

وفى المجتمع الصالح المتقدم ترى شخصية الفرد تدور فى فلك شخصية الأمة كما تدور الأرض فى فلك الشمس، وترى المصالح الخاصة الفردية مرتبطة بالمصلحة العامة كارتباط الأغصان والفروع والأوراق بجذع الشجرة وساقها، وتستمد منها نموها وحياتها وازدهارها كما تستمد أسلاك الكهرباء وشمعاتها الحرارة والنور من محطة توليد الكهرباء، وتكون فيه أولية المرور والسير للمصلحة العامة لا للمصلحة الخاصة، ويدل على ذلك المسلمون الأولون

فى أيام الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وعهود الخلفاء الراشدين والخلفاء الصالحين من الأمويين والعباسيين ، فقد ضرب هؤلاء المسلمون المثل الأعلى فى التضحية والإيثار والتحرر من الأثرة والأنانية، وبذلك صاروا إخوة متحابين متراحمين متعاونين متحدين، وقوة غلابة قاهرة أقاموا بها الدولة العربية الإسلامية التى امتدت من منطلقها فى المدينة المنورة حتى جنوب فرنسا غرباً وتخوم الصين شرقاً . وقد وهبوا أنفسهم ومصالحهم الخاصة لله والرسول فوهبهم الله العزة والمجد والخير والحياة الحرة الكريمة والعيشة الراضية فى الدنيا والآخرة .

ودارت الأيام وتغيرت الأحوال وحاد الخلف عن طريق السلف الصالح وأهمل الأحفاد ماورثوه عن الأجداد من إسلام صحيح وإيمان صادق وتضحية وإيثار ، فضعف الإسلام فى قلوبهم وأطاعوا نفوسهم الأمارة بالسوء والميالة إلى الأثرة والأنانية . والنفس البشرية بلا ضابط يضبطها وبدون رادع يردعها كجواد شموس جموح بلا لجام ، أو كسيارة تسير بلا فرامل .

فاقتتلوا فيما بينهم وتصارعوا وتفرقوا إلى شعوب وأوطان ودويلات فضعفوا وهانوا وطمع فيهم الطامعون وغزاهم فى عقر دارهم الغازون ، واستعمرهم المستعمرون ، ولماذا سلك العرب المسلمون الأقدمون طريق التضحية والإيثار والتعاون والاتحاد ؟

ولماذا انحرف أحفادهم عن ذلك الطريق المستقيم إلى طريق الأثرة والأنانية والتفرق والانقسام ؟ .

السبب امتلاء قلوب الأوائل بنور الإيمان بالله واعتصامهم بحبل الله ، وارتواء نفوسهم من أخلاق الإسلام السامية وفضائله الغالية ، وضحالة الإسلام الصحيح والإيمان الصادق فى قلوب الأواخر ، وتخليهم عن الاعتصام بحبل الله وعن الأخلاق الصحيحة وعن أخلاق الإسلام ومثله العليا ، وقد تمثل المسلمون الإسلام قولا وعملا وسلوكا وخاصة فى عهد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وعهود خلفائه الراشدين فقد قال الله فيهم : «ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » . وقد ائتمروا بقوله عز وجل : « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كريم » .

وأخذوا بقول رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » وأحبوا الله ورسوله أكثر من حبهم لأنفسهم إيماناً منهم بأن الله ورسوله خير لهما من نفوسهم الأمارة بالسوء . وعملوا بقوله عليه الصلاة والسلام : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما » .

ويدل ذلك على أنه لا شيء يخنق صوت الأثرة والأنانية فى نفس المرء كالإيمان بالله والاعتصام بحبله المتين .

فبالتضحية والإيثار وتقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة يصير الناس متحابين متآلفين ومتعاونين متحدين . وبالأثرة والأنانية ووضع المنفعة الشخصية فوق مصلحة الأمة يصيرون متباغضين متنافرين ومتباعدين منقسمين على أنفسهم ، ولنا في الأنصار والمهاجرين قدوة حسنة ، فقد أعطى الأنصار المثل الأعلى وقدموا أقصى غاية التضحية والإيثار والجود حين شاركوا إخوانهم المهاجرين من مكة في أقواتهم وأرزاقهم وبذلك صاروا أسرة واحدة صالحة متعاطفة متراحمة ، وأخوة متكافلين ومتضامنين في السراء والضراء ، وفي التآخي والاتحاد قوة غلابة قاهرة .

وذلك يعني أن فضيلة التضحية والإيثار تجمع وتوحد وتبني وتعلي ، ورذيلة الأثرة والأنانية تفرق وتبدد وتهدد وتحط ، ولا يمكن بناء صرح الوحدة الوطنية في مجتمع يطغى على أفراده الأثرة والأنانية وبيع المصلحة العامة بالمصلحة الخاصة ، إذ لا بد لإقامة صرح التعاون والاتحاد من أن يتحلى أفراد المجتمع بالتضحية والإيثار وتفضيل المصلحة العامة على المصلحة الخاصة ، فالتضحية والإيثار أسمى الفضائل الإنسانية وأعظم الأخلاق الكريمة .

فالمتأمل في حاضر أمتنا العربية وواقع مجتمعنا العربي يتبين له أن العامل الأول في انقسام الأمة العربية والوطن العربي إلى شعوب وأوطان ودويلات هو الافتقار إلى التضحية والإيثار وطغيان

الأثرة والأنانية على حياة المواطن العربي وسلوكه وخاصة لدى الحكام المتزعمين الذين يتزلون مراكز الحكم والسلطة والمسئولية .

ففي المجتمع العربي تقوى النزعات الإقليمية والقطرية على النزعة القومية وتقدم مصلحة الفرد على الجماعة والوطن ، وغالباً مايضحى بالصالح العام في سبيل الصالح الخاص ، وذلك يشكل عقبة كأداء إلى جانب عقبات أخرى كثيرة تحول دون اندماج أقطار الوطن العربي الكبير في دولة عربية واحدة، والباعث على ذلك كله الأنانية والأثرة وضحالة الوعي الوطني والقومي وضيق الأفق عن إدراك مدى الخطر الكامن في تقديم المصلحة الفردية على المصلحة العامة .

وحب النزعات والمناصب من إفرازات الأثرة والأنانية وهي نزعة قوية طاغية في العالم العربي تسد الطريق في وجه ركب الوحدة العربية الشاملة ، وتمزق الأمة العربية والوطن العربي الكبير إلى شعوب ودويلات وأوطان صغيرة ضعيفة، وفي ظل هذا الانقسام والتمزق تعاني الأمة العربية من ضعف وقصور وتخلف وغزو استعماري صهيوني لها في عقر دارها، واغتصاب الأجزاء الغالية من ترابها وديارها ، ومشاكل اقتصادية وسياسية ، وقد نبه الشاعر الأردني المعاصر (مصطفى وهبي التل) أحد الملوك العرب المحدثين إلى هذا الخطر وذلك الداء فقال :

والله ماغالكم واجتث دوحتكم   بين الشعوب سوى حب الزعامات

وما الدواء الشافى لهذا الداء الأخلاقى والاجتماعى الوبيل يا ترى؟ أنجع دواء لمرض الأثرة والأنانية وبيع المصلحة العامة على المصلحة الخاصة هو توعية المواطن وإفهامه بأن التضحية والإيثار خير له وأبقى من الأثرة والأنانية، وأن سلامة المصلحة الخاصة رهن بسلامة المصلحة العامة، وبقاء الفرد مرتهن ببقاء الأمة والوطن. فإذا ضاعت المصلحة العامة ضاعت معها المصلحة الخاصة، وإن سلم الصالح العام سلم الصالح الخاص. فالوطن ملك عام للأمة كلها وهو مصلحة عامة فإذا ضاع الوطن ضاعت معه أملاك المواطنين وذهبت مصالحهم الخاصة.

ولعل خير دواء يشفى النفس الإنسانية من داء الأثرة والأنانية الإيمان بالله والعقيدة الإلهية الراسخة فى القلب وتقوى الله وطاعته فالله سبحانه وتعالى يأمر عباده بالتضحية والإيثار وينهاهم عن الأثرة والأنانية، وقد وعد المؤمنين الذين يضحون فى سبيله ويؤثرون المصلحة العامة على المصلحة الخاصة — النصر والعزة والعلا فى الدنيا، وجنات تجرى من تحتها الأنهار فى الحياة الآخرة. وخير شاهد على ذلك العرب فى العصر الجاهلى وفى ظل الإسلام فقد كانوا قبل الإسلام تطغى عليهم النزعة الفردية والتعصب القبلى والأثرة والأنانية فتفرقوا وتقاتلوا وتغازوا ووهنوا واستضعفهم الفرس والروم والأحباش واستعمروهم واستعبدوهم. وفى ظل الإسلام الحنيف تحلوا بالتضحية والإيثار فتحابوا وتآلفوا وتعاونوا

واتحدوا وتحرروا وتقدموا وعزوا وسادوا وأقاموا أعظم دولة عربية إسلامية ، وأرقى حضارة إنسانية فى العصور الوسطى .

وصاحب الإيمان المتين بالله والعقيدة الإلهية الراسخة يتزين بالتضحية والإيثار كما يتحلى بالصحة والعافية ويبرأ من الأثرة والأنانية كما يبرأ من المرض والوباء .

فالتضحية والإيثار ثمرة الإيمان والعقيدة والعلم والوعى الوطنى، وفى هذا المعنى قال الشاعر العربى عمر أبو ريشة :

وإذا راضت العقيدة قلباً فمن الصعب أن يكون أنانى

والأثرة والأنانية مما يدل على إقفار القلب من الإيمان بالله والعقيدة السامية ، وقد تجعل الأنانية صاحبها لا أخلاقياً انتهازيا فالغاية عنده تبرر الواسطة وبلوغ الهدف بأى طريقة وأى ثمن . والسياسة الاستعمارية المجرمة القائمة على الاستغلال والاستعباد والنهب والسلب والقتل وامتصاص الدماء مبعثها الأثرة والأنانية . ومايلوث جو الحياة الدنيا من مفاسد ورذائل وجرائم وشرور وفجور سببه الناس اللا أخلاقيون الذين لا يتورعون عن كل منكر وباطل وفجور فى سبيل مطامعهم الشخصية ومآربهم الذاتية فهم لذلك أضل سبيلا من الأنعام وأدنى درجة من الحيوانات .

وخلاصة القول أنه من الخير للمرء ومن مصلحته الخاصة أن يتحلى بالتضحية والإيثار وأن يتخلى عن الأثرة والأنانية .

ماهو أغلى وأثمن من المـال

يشترى المرء بالمـال مايحتاج إليه من مأكل ومشرب وملبس ومسكن وغير ذلك من حاجات الحياة ومتطلباتها . ويدفع المرء المـال ثمناً للدواء والعلاج والوقاية من الأمراض ، وللراحة والسعادة وما إلى ذلك من وسائل وطرق تلزم للتمتع بالصحة والعافية والسلامة والأمان . ولابد من وجود المـال لقيام مظاهر البناء والعمران والنهضة من زراعة وصناعة وتجارة وعـلم وأدب وفن .

ويلزم المـال لتحصيل العلم والمعرفة والثقافة ، فالفقر المدقع قد يكون مقبرة للنبوغ والمواهب والطاقات .

والمـال يساعد فى إبعاد النفوس الشريفة بفطرتها والمعادن الكريمة والأصول النبيلة عن مهاوى الرذيلة والانحطاط ومستنقعات الفساد والعار . والمال يساهم فى توفير الحياة الإنسانية الحرة الكريمة، ويزيد العقول المستنيرة نوراً وضياء والنفوس الحرة الأبية عزة وإباء كما تزداد النار بالوقود اشتعالا والتهاباً .

والمـال من وسائل القوة والجاه والنفوذ والسلطان ، وهو من عناصر ومقومات القوة الغلابة التى تلزم لحماية الأمة والوطن

من الأخطار الداخلية والخارجية ولتحرير الأرض المغتصبة واسترجاع الحقوق المسلوبة .

والمال يسهم في بعث الحياة والنمو والازدهار والقوة في في النفوس الحية كما أن الماء يساعد في نمو وازدهار الكائنات الحية القابلة للحياة النامية المثمرة . أما النفوس الميتة الرديئة بفطرتها ومعدنها فلا يجدى المال في بعثها وإحيائها كما أن الماء لا ينفع في إحياء النبات الجاف والهشيم .

وبالمال تتحرك النفوس الواقفة المتعطلة وتسير إلى الأمام وتصعد إلى فوق ، ولكن لا يحرك النفوس الميتة المعدمة من نبض الحياة والحركة كما أن الوقود يجدى في تسيير السيارة الصالحة للسير والحركة ولا يجدى في تحريك السيارة التالفة الفاسدة . ويساعد المال في تحرير الأجسام والأبدان من السجن والاستعباد وفك الأيدى والأرجل من القيود والأغلال . أما النفوس والأرواح والعقول المقيدة المحبوسة فلا يحررها إلا الأفكار الثورية العالية والعقائد التحررية السامية .

ولا بد من توافر المال لإقامة أماكن العبادة وبيوت الله وتهيئة الجو المناسب للعبادة وأداء شعائر الدين . ويلزم لإعداد القوة اللازمة لحماية الدين من أعدائه أعداء الله ، ولتوفير وسائل نشره وإزالة العقبات والحواجز من طرق انتشاره . ويلزم المال لإحلال

الشبع واليسر والرخاء محل الجوع والعسر والشقاء الذى كثيراً ما يتسبب فى وقوع الجرائم والشرور والآثام والرذائل والحروب .

ويلزم المال كذلك لحل المشاكل وتذليل الصعاب وتقويم الأمور المعوجة وإصلاح الأحوال الفاسدة وإحقاق الحق والعدل والخير وإزهاق الباطل والظلم والشر . والمال من زينة الحياة الدنيا وزخرفها فقد قال الله تعالى فى كتابه العظيم القرآن الكريم :

« المال والبنون زينة الحياة الدنيا » .

ولذلك أحبه الناس جميعهم فى كل زمان ومكان ، ولا يألون جهدا فى السعى إليه والحصول عليه. قال سبحانه وتعالى : «وتحبون المال حباً جما». وإذا لم يغالوا فى حبه والحرص عليه وإذا وأحسنوا استعماله واستخدموه فى طريق الخير والحق والصلاح والبناء جلب لهم الخير والقوة والرخاء والحياة الطيبة السعيدة . وإن اشتطوا فى الحرص عليه وضنوا به وأساءوا استخدامه فاستعملوه فى الشر والباطل والفساد والتخريب عاد عليهم بأوخم العواقب وأبأس المصائر فى الدنيا والآخرة .

وليس عيباً أن يحب المرء المال وأن يسعى إليه ولكن العيب هو أن يغالى فى حبه ويتهافت عليه ويكسبه بكل الطرق وبأى ثمن وأن يصير عبداً له لا سيداً .

والمرء العاقل الشريف لا يغالى فى حب المال ولا يتهافت عليه

ويرى فيه وسيلة لا غاية للحياة الكريمة ويعتبره دون القيم والمعانى التى بها تصير الحياة الإنسانية طيبة جميلة ويسودها الأمن والسلام والوئام وهى القيم الأخلاقية والفضائل الإنسانية من صدق وأمانة وعزة وكرامة وشرف ورحمة وطهارة وعدل وحق ووفاء وأخوة وصداقة وحب الوطن وصحة وعافية وراحة وسعادة وما إلى ذلك.

والإنسان العاقل الصالح يبذل المال فى سبيل الحياة الحرة الكريمة والمصلحة العامة وبناء الوطن وخدمة الأمة ولا يبيع ذمته ولا دينه ولا شرفه ولا وطنه بالمال قل أو كثر. ولا يغدر ولا يخون ولا يؤجر نفسه طمعاً فى المال والثراء. فالمال يروح ويجىء ويدخل ويخرج ويمكن تعويضه واسترجاعه إذا ضاع وافتقد، أما الشرف فإنه كالزجاج لا يمكن جبره وإصلاحه إذا انشق وانكسر.

والمرء الشريف لا يقبل مساومة على شرفه ولا متاجرة فيه، وإذا ماحاول أحد أن يساومه على شرفه أو عرضه أو دينه أو وطنه انتفض له وثار عليه قائلا له :

أصون عرضى بمالى لا أدنسه
لا بارك الله بعد العرض بالمال
أحتال للمال إن أودى فأكسبه
ولست للعرض إن أودى بمحتال

والعاقل الشريف يكسب ماله بالطرق الشريفة المشروعة ويرفض

المال الحرام . فالمال الحرام خسارة والمال الحلال مكسب ، وقليل من المال الحلال خير وأبقى من كثير من المال الحرام . والشريف لا يباع ولا يشترى بالمال . لذلك يصلح لتحمل المسئولية فى أمته ووطنه . أما الذى يباع ويشترى بالمال ويتاجر بنفسه وضميره فلا يصلح لخدمة مجتمعه وتحمل المسئولية فيه . والذى يصون شرفه يصون شرف أمته وبلاده والذى يفرط فى شرفه يفرط فى شرف أمته ووطنه .

أما الجاهل الدنئ فإنه يستعبده المال استعباداً يجعله يؤثره على القيم الأخلاقية والمبادئ السامية ، ويتهافت عليه بأى طريقة وأى ثمن ولا يبالى جاءه المال من طريق شريف أم طريق دنئ ، ومستعد لأن يفرط فى كرامته وحريته وشرفه ودينه فى سبيله ، ويؤجر نفسه وضميره بالمال كما تؤجر الآلات والأدوات ، ويباع ويشترى كما تباع وتشترى البضائع والسلع التجارية . وفى سوق المال يمارس العهر الأخلاقى والاجتماعى والسياسى والوطنى .

ومن عشاق المال وعبيده يكون الخونة والعملاء والجواسيس . وكم أغرى المال ناساً بالغدر والخيانة ، والعهر وارتكاب الجرائم والآثام والمحرمات .

وهذا الداء الأخلاقى الوبيل منتشر فى مجتمعنا العربى . وهو

يصيب الخونة والعملاء والجواسيس الذين يستأجرهم الاستعمار وإسرائيل بالمال والتجسس لهما على الأمة العربية ولخدمة مصالحهما الاستعمارية فى البلاد العربية ، وهذا النوع الخسيس من الناس من عبيد المال الذين يضعون المال فوق الشرف والكرامة والأمانة والدين والضمير والوطنية وما إلى ذلك من قيم أخلاقية ومبادىء سامية .



وخلاصة القول أن المال وسيلة للحياة : الحياة الكريمة والعيشة الشريفة الطيبة . وليس غاية ولا هدفاً فى حد ذاته ، وأن الحياة الطيبة الكريمة وما تحمل من قيم أخلاقية وفضائل إنسانية ومبادىء سامية هى فوق المال وأغلى وأسمى منه ، ويضحى بالمال فى سبيلها ولا يضحى بها فى سبيله . فمن باع شرفه ودينه وضميره ووطنه بالمال خسرها وخسر المال ، ومن افتداها بالمال ربحها وربح المال .

أما كيف يتشرب المرء هذه الأفكار والمعانى ويتمثلها قولا وعملا وسلوكا فى حياته ، وينظر إلى المال هذه النظرة ويزنه بهذا الميزان فذلك يتطلب توعيته وتنويره بها وغرسها فى نفسه واعتصامه بحبل الله ، ولا شىء يسمو بالنفس ويعلو بها على مزالق المال

وإغراءاته والطمع فيه والتهافت عليه بكل طريقة وأى ثمن كالإيمان بالله وتقوى الله فى جو خال من الجوع المهلك والظمأ القاتل والفقر المدقع الفاضح . فالجوع قد يخرج الجائع عن طوره وقد يدفعه إلى المزالق والانحرافات . وقد أشار إلى ذلك رسول الله محمد (صلى الله عليه وسلم)

فقال : « يكاد الفقر أن يكون كفراً » .

ومن أبرز أخلاق المؤمن بالله الصبر على الشدائد من فقر أو مرض أو ضيق مع العمل على التخلص منها ، والتجرد من الطمع والجشع فى المال الذى كثيراً ما أغرى ناساً بسلوك طريق المعصية والفجور والجريمة والانحراف .

ومن يتق الله ويعتزم كسب المال الحلال وسلوك طريق الشرف والأمانة ونبذ المال الحرام وتجنب طريق الانحراف والخيانة ييسر له الله أمره ويجعل له مخرجاً وفرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ، فالدنيا لا تضيق ولا تسود، وسبل العيش الشريف لا تنسد إلا فى وجوه أولى التفكير الضيق والقلوب المريضة والنفوس الضعيفة. فبقدر ما يكون عقل المرء متفتحاً واسعاً ونفسه صافية وقلبه عامراً بالإيمان بالله وحب العمل يجد الدنيا متفتحة واسعة أمامه ، وجميلة صافية فى نظره وعامرة بالرزق فى سعيه وعمله .

وفى ذلك قال شاعر عربى قديم :

لعمـــرك ماضاقت بلاد بأهلها

ولكن أخلاق الرجال تضيق

وقال إيليا أبو ماضى :

والذى نفســه بغير جمال

لا يرى فى الوجود شيئاً جميلا

أنواع الكلام

الكلام أنواع ثلاثة : كلام طيب جميل فيه حكمة وهدى وخير ينفع حامله وقائله وسامعه . وكلام سيء خبيث يضر بصاحبه وتمجه الأذن وتقرف منه النفس . وهناك كلام فارغ تافه لا معنى له ولا طعم ولا قيمة . فالكلام الطيب الجميل الحكيم ينير العقل ويضيء له طريقه في الحياة كما يضيء نور القمر والكهرباء الطرق والمنازل . ويهديه الصراط المستقيم . ويدعو النفس إلى البر والجمال والفضيلة وينهاها عن الشر والقبح والرذيلة .

والكلام السامي النبيل يبعث النفوس الميتة من مراقدها ويحييها كما يحيي الماء الأرض بعد موتها ، ويشفي القلوب المريضة من أمراضها الخلقية كما يشفي الدواء الناجح الأجسام المريضة من عللها ، ويبعث في النفوس الخاملة الباردة الحيوية والنشاط والحماس والعزة والطموح والدفء والحرارة ، كما يبعث ضوء الشمس الدفء والحرارة في الأجسام الباردة ويدفعها إلى النهوض والعمل والتقدم والإثمار ، ويجعل الأرواح الذابلة الزاوية نضرة مزهرة مشرقة كما يجعل الندى الزهور الذابلة متفتحة متفرعنة في الصباح .

والكلمة الطيبة السامية تطهر الصدر من جراثيم الحسد والمكر

والحقد واللؤم، كما يتطهر المكان الموبوء من الميكروبات والجراثيم والحشرات بالسموم والمبيدات. والكلام الطيب الجميل يسكن النفوس المنفعلة الهائجة ويحرك النفوس الساكنة الهادئة ويوقظ القلوب النائمة ويفتح العيون المغمضة والآذان المغلقة ويطلق الألسنة من عقالها ويهذب النفوس الشائكة. وبه تتربى الأجيال الصاعدة تربية صالحة سليمة. ومن الكلام الطيب النافع الكلام الذى يصنع الوعى الوطنى والإنسانى والثورات الفكرية ويدفع إلى الثورات العملية على الظلم والفساد والباطل والتخلف. ومنه كلمة حق عند سلطان جائر. وما أطيب الكلام الذى يثير فى النفس عواطف نبيلة ومشاعر طيبة إنسانية ويعلم مكارم الأخلاق والآداب.

ولاريب فى أن كلام الله تعالى فى القرآن الكريم وأحاديث رسوله محمد (صلى الله عليه وسلم) أجمل الكلام وأطيبه وأسماه وأشرفه. فبالآيات الكريمة والأحاديث الشريفة آمن العرب والمسلمون جميعاً بالله وعبدوه وحده لاشريك له. واهتدوا إلى طريق الحق والخير والحياة الحرة الكريمة، وتعلموا مكارم الأخلاق وتعاونوا واتحدوا وأقاموا أعظم دولة عربية إسلامية وأرقى حضارة إسلامية فى العصور الوسطى. وهكذا حمل الله تعالى أنبياءه ورسله للناس كافة الكلمة الطيبة والحكمة الهادية والموعظة

الحسنة. على أن الكلام الطيب الجميل الحكيم لا يؤتى أكله ولا يثمر مالم يلق قلوباً واعية وآذاناً صاغية ونفوساً طيبة خيرة بفطرتها كما أن الماء لا يجدى فى التربة السبخة والأرض الصخرية . فقد قال تعالى و ننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا » . وقال أحد الشعراء فى المعنى نفسه :

لقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادى

وإذا لم يجد القول الطيب الحكيم فى النفوس العقيمة والقلوب المختومة والآذان المقفلة فاللوم يقع على هذه النفوس اللئيمة ولا يقع على الكلام الطيب نفسه . ألا ينير العقول قوله تعالى : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ومثله قوله صلى الله عليه وسلم « مايزال المرء عالماً ماطلب العلم فإذا ظن أنه علم فقد جهل » . ونتعلم الاعتدال فى الحب والبغض من قول أحد الحكماء : أحبب حبيبك هوناً ماعسى أن يكون بغيضك يوماً ما ، وأبغض بغيضك هوناً ماعسى أن يكون حبيبك يوماً ما » . وينهى الشاعر الحكيم زهير بن أبى سلمى عن الادعاء وإخفاء الحقيقة :

ومهما تكن عند امرىء من خليقة
وإن خالها تخفى على الناس تعلم

ويوزن المرء بعقله لا بجسمه وشكله كما قال أحد الشعراء :

المرء بالعقل لا بالحجم والكبر لاتحسبن نمو المرء كالشجر

وفى تقوى الله منتهى العقل والحكمة كما قال حكيم : « رأس الحكمة مخافة الله » وفى التعاون والاتحاد القوة والغلبة وفى التفرق والانقسام الضعف والهزيمة كما قال أحد الشعراء :

تأبى العصى إذا اجتمعن تكسرا
وإذا افترقن تكسرت آحاداً

وتتعلم النفوس الطيبة حب الحق واتباعه واجتناب الظلم والباطل، من هذه الأقوال الحكيمة : «الحق عال لا يعلى عليه والظلم مؤذن بخراب العمران » و « العدل أساس الملك » .

ولا بد أن يجنى المرء ثمار أعماله سواء كانت خيراً أو شراً كما قال الله تعالى :

« من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد».

وقال الحطيئة :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه
لا يذهب العرف بين الله والناس

وقال حكيم : « ما تزرع تحصد »

ويحفز أحمد شوقى بأقواله السديدة هذه النفس الطيبة الخيرة إلى التحلى بمكارم الأخلاق ليستقيم أمرها وتفلح فى حياتها وآخرتها :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت　　فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا
صلاح أمرك للأخلاق مرجعه　　فقوم النفس بالأخلاق تستقم
وليس بعامر بنيـــان قوم　　إذا أخلاقهم كانت خـرابا

ويبعث قول المتنبى الشجاعة فى النفس الحرة :

وإذا لم يكن من الموت بد　　فمن العار أن تكون جبانا

ومثله هذا القول : « لا الشجاعة تقصر العمر ولا الجبن يطيله »

وأحسن منه قول الرسـول محمد (صلى الله عليه وسلم) : « لا يكون المؤمن جبانا ، وأفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » .

ويتأثر المرء الشريف أبلغ التأثر بقول حسـان بن ثابت الأنصارى :

أصون عرضى بمالى لا أدنسه　　لا بارك الله بعد العرض بالمال
أحتال للمال إن أودى فأكسبه　　ولست للعرض إن أودى بمحتال

ونتعلم فضيلة الاعتماد على النفس من هذا القول الحكيم :

ماحك جلدك مثل ظفرك　　فتول أنت جميـــع أمرك

كما أننا نتعلم الأخوة الإنسانية من قوله تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبـــائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

ولا يتسـع المجال لذكر أكثر من هذه الأقوال الحكيمة والكلام الطيب الجميل .

ولا ريب فى أن أولى الألباب يحرصون الحرص كله على الانتفاع بهذه الدرر واللآلىء ويضيئون بها عقولهم وبصائرهم كما يضيئون بيوتهم بأنوار الكهرباء والمصابيح، ويداوون بها أنفسهم الأمارة بالسوء كما يداوون أجسامهم، ويجملون بها شخصياتهم كما يجملون أشكالهم ومظاهرهم بالملبس الفاخر وحلى الفضة والذهب والماس ويملأون بها صدورهم وعقولهم كما يملأون معدهم بما لذ وطاب من ألوان الطعام أو الشراب، فالكلام الطيب والقول الحكيم درر ولآلىء وجواهر وحلى تتزين بها النفوس الطيبة العاقلة فهى عند أولى الأبصار والألباب أغلى من المال أو الذهب ويضحى بالمال والذهب فى سبيلها، وهو نور للعقول والبصائر ودواء شاف من أمراض القلوب والنفوس وغذاء روحى طيب لذيذ وعطر نفسى. ويحمل خيراً كثيراً لصاحبه كما قال تعالى: «يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الألباب».

وهذا النوع من الكلام ينفع الناس ويمكث فى الأرض الطيبة وفى النفوس الخيرة والعقول المتفتحة، وأما الزبد فيذهب جفاء، والكلام الفارغ الأجوف يطير هباء ويذهب بالرياح.

ومن الكلام الفارغ أن يقول المرء مالا يفعل فقد قال تعالى: «كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون». ومن ذلك النفاق والتملق والكذب واللغو والجدل البيزنطى. وقد وصف الله المؤمنين

حقاً بقوله: «والذين هم عن اللغو معرضون» . وقال حكيم في الجدل البيزنطي «إذا أراد الله بقوم سوءاً أعطاهم الجدل ومنعهم العمل». ومن الكلام الزبد الذي يذهب جفاء إطلاق التهديدات العنترية الجوفاء والثرثرة الفارغة والرد على العدوان المسلح بهجوم كلامي واحتجاج شديد اللهجة ومواجهة العمل بالكلام. ومنه التصريحات التي تقال للاستهلاك المحلي وتخدير الأعصاب ومنه «أوسعتهم سبا وفازوا بالإبل» . فهذا النوع من الكلام لا يصلح لحل القضايا التي يمكن حلها في دور القضاء والمحاكم، ولا للقضايا التي لا تحل إلا في ساحات الحرب والقتال . وهو كلام لا طعم له ولا معنى ولا يعتد به ويدخل في عداد «ما كل كلام له جواب» لأنه خال من المنطق والجدية والفائدة ، ولا يصدر عن شخص عاقل حازم ولا يتحرك له رجل عملي متزن . فالمرء العاقل المتزن لا يهتز للكلام الأجوف الفارغ بل يؤثر فيه القول المعقول الموزون ويثيره القول المقرون بالتنفيذ والعمل الجاد ، ولا ينفع الكلام الفارغ صاحبه ولا يضر الموجه إليه ، ولا يسمن ولا يغني من جوع ، وليس أدل على ذلك من التهديدات العنترية الفارغة والشكاوى العديدة والاحتجاجات الشديدة الكثيرة التي كنا ومازال نواجه بها نحن العرب اعتداءات إسرائيل المتكررة على الأراضي العربية وخاصة قبل حزيران ١٩٦٧ م . وبقينا مدة ربع قرن ننادي بسقوط إسرائيل وتدشدق

بتحرير فلسطين منها فلم تروعها عنترياتنا ولم تمنع عدوانها علينا ولم تحرر أراضينا العربية المغتصبة ولم تضرها بشيء ، بل أضرت بنا وأغرتها بالعدوان علينا واحتلال باقي فلسطين وسيناء والجولان. والكلام الفارغ دليل على سخف قائله وضعفه وعجزه عن العمل والتنفيذ . فكثير الكلام قليل الفعال . وأكثر الناس صراخاً وكلاماً أقلهم عملا وحزماً وإنتاجاً . والعاقل الحازم العملي يعمل في صمت وكتمان ويعمل كثيراً ويتكلم قليلا ، وفي هذا المعنى قال شاعرنا ابراهيم طوقان في الفدائي :

قل لمن عاب صمته خلق الحزم أبكما
وأخو الحزم لم تزل يده تسبق الفما

وأقبح أنواع الكلام وأسوؤه الشتيمة والبذيء الفاحش فهو يزكم النفس الطيبة بقبحه وبذاءته كما تزكم الروائح الكريهة الأنوف وتقرف منه كما تقرف من الأشياء النتنة . وينفر الناس من صاحبه كما ينفرون من مصادر الروائح الكريهة والجيف النتنة . لذلك قال الحكماء «كل إناء بالذي فيه ينضح» والكلام صفة المتكلم .

لذلك نرى ذوي العقول والأخلاق يترفعون عن الشتيمة والسباب وفاحش القول لأنهم يدركون أن الشتيمة تضر بالشاتم وتعنيه ولا تضر بالمشتوم ولا تعنيه ، وأن الكلام يدل على قائله ولا يدل على المقول عنه . ويدل على ذلك سقوط كفار مكة الذين

كانوا يؤذون المسلمين بألسنتهم وأيديهم، وعلو المسلمين. وقد وصف الله عباده الأبرار الصالحين بقوله : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » . والمرء العاقل المهذب لا يجارى السفيه السافل فى سفهه وسفالته ، فالذى يجارى السفيه فى سفاهته يكون سفيها مثله كما قال شاعر حكيم :

إذا جاريت فى خلق سفيها   فأنت ومن تجاريه سواء

فالتراشق بالألفاظ الفاحشة النابية مما يلوث المتراشقين كما يتوسخ الذين يتقاذفون بالأوحال الأشياء القذرة . هذا والشتيمة ليست صاروخا أو رصاصة يمكن أن تجرح أو تقتل الموجهة إليه بل هى كلام فى كلام يذهب مع الرياح ويتبخر بالجو . فلو كانت الشتيمة تلحق أى ضرر لمشتوم لأحرقنا إسرائيل بكثرة ما أطلقنا عليها من شتائم سخيفة وتهديدات فارغة مثل دولة العصابات وشذاذ الآفاق . وهذه هى الحكمة فى قول القائد الصهيونى موشى ديان لأحد العرب المتظاهرين فى الضفة الغربية «استعمل لسانك ولكن لا تستعمل يدك» . وسبقه إلى اتخاذ مثل هذا الموقف حاكم انجليزى فى بئر سبع أيام حكم الاستعمار البريطانى لفلسطين فقد كان يردد مع المتظاهرين الفلسطينيين قولهم : « يسقط الانجليز » لأنه كان يعى جيداً أنه تهديد أجوف وصراخ يذهب هباء . وأخيراً من خسر وسقط يا ترى ؟ عرب فلسطين أم الانجليز ؟ وهكذا يتبين لنا مما تقدم أن من الكلام ما ينفع ويفيد ومنه مالا ينفع ولا يضر ومنه ما يضر ولا ينفع .

من هو الرجعي ومن هو التقدمي ؟

كلمة رجعية تعني لغوياً القهقرى والرجوع إلى الوراء ، وكلمة تقدمية معناها التقدم إلى الأمام . وتطلق كلمة الرجعية على الفئات التي ترجع إلى الخلف ولا تتقدم ولا تماشي الزمان بما تحمله من أفكار ومفاهيم ومعتقدات غير سليمة ، بينما كلمة التقدمية تنعت بها الفئات التي تنهض وتتقدم وترتقي في ميادين الحياة المتنوعة .

وذلك يعني أن كل قول أو عمل أو نظام يرجع بالناس إلى الوراء ويجعلهم متأخرين متخلفين عن السير مع ركب الحياة المتقدم الصاعد يعتبر رجعياً ، وكل فكر أو عمل أو مبدأ يعمل على تقدم الناس والصعود بهم إلى الأعلى يعد تقدمياً .

وبالعقل السليم المستنير بنور العلم والثقافة وبالخلق الكريم والجسم السليم يتقدم الإنسان ويرتقي ويقوى ويعيش حراً كريما .

إذاً الثقافة التي تنير عقل الإنسان وتهديه سواء السبيل وتهذب نفسه وتشربه مكارم الأخلاق تعتبر ثقافة بناءة تقدمية . والعلم الذي ييسر للإنسان سبل الحياة ويوفر له العيش الكريم، ويسخر والبر البحر والجو لخدمته ، ويختصر المسافات الزمنية والمكانية

ويقرب البعيد ويبعد القريب ويقيه من المرض ويشفيه من الداء ، ويساعد فى توفير الصحة والعافية يعتبر علما تقدميا راقيا .

والجهل ظلام للبصر والبصيرة ومصدر كثير من المشاكل والشرور والآفات والأمراض وهو ضعف وذل وتخلف وانحطاط وأم الرجعية وأبوها ومنبتها الخصب وجوها الملائم . والماضى فيه ما يصلح وما لا يصلح للحاضر . فيه من المعتقدات والاتجاهات والعادات والتقاليد ما يؤثر فى نهضة المجتمع وتقدمه وما يسمو به ويعلو .

إذاً الأفكار والمعتقدات والعادات والتقاليد التى من شأنها أن تحفز الناس على التقدم والرقى تعتبر نيرة تقدمية سواء كانت قديمة أو حديثة .

ونظام الحكم الديمقراطى تقدمى لأنه يقوم على الشورى وحرية الرأى وسيادة الشعب ورضا الناس . وفى ظل النظام الديمقراطى السليم تتفتح البراعم وتزهر وتثمر وتبرز الكفاءات والمواهب وتتبارى وتتنافس فى ميدان المصلحة العامة ، ويوضع الرجل المناسب فى المكان المناسب ، وتتحقق العدالة الاجتماعية ويسود مبدأ تكافؤ الفرص ، ويسقط الاحتكار والاستغلال ، ولا تستأثر فئة قليلة بالنفوذ والحكم ولا تتسلط بسيف السلطة على رقاب الفئات الأخرى . وتتاح لكل مواطن كفء فرصة

الوصول إلى مركز القيادة والمسئولية . وبذلك ينهض الشعب ويتقدم ويرتقى .

أما الحكم الفردى الاستبدادى فهو رجعى لأنه تحتكر فى ظله فئة قليلة معينة من الناس مقاليد السلطة والحكم وتستأثر بها ، وتتمتع بامتيازات خاصة دون سائر جماهير الشعب. وتحلل لنفسها أشياء تحرمها على سواد الناس ويجوز لها مالا يجوز لغيرها .

وفى حمى نظام الحكم الاستبدادى تظهر عبادة الفرد والصنم وتخنق الأصوات الحرة ولا تسمع إلا أصوات التملق والنفاق وتكتم الأفواه الناطقة إلا أفواه التطبيل والتزمير والتبخير ، وتوضع القيود والأغلال فى الأيدى والأرجل . وبذلك يقعد الشعب عن العمل والنشاط وتشل حركته ويتخلف عن اللحاق بركب الحياة السائر المتقدم ، فيصاب بالفقر والمرض والضعف وتذبل روحه ويجف عوده .

وفى ظل الأمن والنظام والقانون والانضباط والحرية الفردية المحدودة بالمصلحة العامة يتقدم الشعب ويرتقى ويستقيم أمره ويعز ويسود ، وبالفوضى والاضطراب والحرية المطلقة غير المحدودة يتأخر المجتمع ويتخلف ويضعف ويضيع .

وذلك يعنى أن العمل بالنظام والقانون والحرية المحدودة من

التقدمية ، وأن الفوضى والانفلات والاضطراب والحرية المطلقة من الرجعية .

والثروة الوطنية ملك عام لأبناء الوطن جميعهم ، وأن ينال كل مواطن منها نصيباً يساوى مقدار ما يبذل من جهد وخدمة لوطنه وأمته عدالة اجتماعية تعود على الشعب بالخير والقوة والتقدم ، وأما أن تسيطر طغمة جشعة انتهازية على الثروة الوطنية فظلم اجتماعى فادح يعود على الشعب بالفقر والضعف والتخلف .

والمجتمع الذى يتحلى أفراده بالأخلاق والآداب ومنها التضحية والإيثار وإنكار الذات وتقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة يتقدم ويرتق ويعز ويسود . والمجتمع الذى يفتقر إلى الأخلاق الكريمة وتسوده الأثرة والأنانية والنزعة الفردية والمصلحة الشخصية يتخلف ويتأخر ويضعف ويذل ، لأن الأخلاق الكريمة أساس التقدم والرقى فى شتى ميادين الحياة ، ولا يتقدم الإنسان علمياً وصناعياً ومادياً ما لم يتقدم أخلاقياً وأدبياً وروحياً . إذن كل فكر أو عمل يقوم على الأخلاق والآداب يعد تقدمياً ، وكل فكر أو عمل يتحلل من الأخلاق والآداب ولا يتزود بها يعتبر انحلالياً ، والانحلالية توأم الرجعية . ومظاهر الانحلال والخلاعة والانحراف الأخلاقى من ملبس غير محتشم وصور عارية ومناظر فاضحة وسلوك شائن مما يفسد أخلاق الناس ويبعدهم عن طريق الفضيلة والشرف ،

وذلك يشغلهم عن الجد والعمل والتقدم والبناء الوطنى ، ويقعد بهم عن السير مع ركب الحياة المتقدم ، إذاً الملابس والأزياء والمناظر والصور المنافية للاحتشام والأدب والوقار لا تدل على التقدمية والرقى بل تدل على الانحلال والرجعية .

وكذلك الثقافة التى تهذب نفس الإنسان وتشذب غرائزه وتسمو به عن النزعات الحيوانية وتحلق به فى أجواء روحانية وملائكية ثقافة تقدمية راقية . أما الكتابات التى تثير شهواته البهيمية وتطلق العنان لغرائزه الحيوانية وتلقى به فى مستنقع الشهوات والملذات فهى ثقافة رجعية انحلالية .

والتعصب الدينى والقومى والوطنى والتمييز العنصرى من مظاهر الجهالة والرجعية ، لأن ذلك يثير فتناً وحروباً أهلية ويقطع أوصال المجتمع ويهدم صرح الوحدة الوطنية ، وذلك يمنع الشعب من التقدم والرقى ويرجع به القهقرى .

ومن الأنظمة السياسية والرجعية النظام الطائفى الذى يقوم على التقسيم الطائفى لأعباء العمل والمسئولية فى الدولة ولا يقوم على توزيع الكفاءات والمؤهلات على مراكز العمل والمسئولية . ولا يوضع فيه الرجل المناسب فى المكان المناسب . والمجتمع الذى يسوده نظام حكم طائفى يبقى متأخراً متخلفاً وضعيفاً مخلخلا .

ورعاية البراعم الطالعة والزهور المتفتحة وتعهد الغراس النامية

ورعاية المواهب والعبقريات الناشئة من أجل الخدمات الوطنية التي تنهض بالمجتمع وتبني الوطن، ومن سمات الحكم الوطني التقدمي. وخنقها وقتلها وقبرها من أشد الضربات القاتلة الأمينة التي توجه إلى صدر الأمة والوطن ولا يوجهها إلا حكم رجعي خائن.

والحكم الذي يتقوقع داخل الإقليمية الضيقة ويقف حجر عثرة في طريق تعاون واتحاد شعوب الأمة الواحدة المتفرقة وأجزاء الوطن الكبير الممزق يعتبر حكماً رجعياً تقهقرياً لأنه بالتعاون والاتحاد تصير الشعوب الضعيفة المتخلفة قوية متقدمة، وبالتفرق والانقسام تضعف الأمم وتتأخر وترجع القهقرى كما يشهد على ذلك واقع الأمة العربية السيء.

وكم يكون رجعياً المرء الذي يقف موقفاً سلبياً من أمته ووطنه وينطوي على نفسه وينعزل عن الناس ولا يمد يده لمصافحتهم والتعاون معهم على بناء صرح الخير والتقدم والحق والعدل وهدم قلاع الشر والباطل والظلم والتخلف، وكم يكون تقدمياً إيجابياً المواطن الذي يقف مع بني قومه ووطنه في ميدان العمل والبناء والخدمة العامة.

والمرء الذي يعيش في الحاضر بجسمه ويفكر بعقلية الماضي ويستعمل أساليب الأمس في معالجة قضايا ومشاكل اليوم ولا يماشي الزمان في أساليبه ووسائله ونظمه المتطورة المتغيرة فيسابق السيارة بالفرس ويقابل الرشاش والمدفع بالرمح والسيف والسهام ويستضيء

بنور السراج فى عصر الكهرباء يعتبر شخصاً موغلا متمادياً فى القدم والرجعية ، والمرأة نصف المجتمع وشطر الحياة الإنسانية الثانى ويد الحياة اليسرى ، والرجل يدها اليمنى ، والحياة لا تكون ولا تتقدم بالرجل وحده ولا بالمرأة وحدها بل بالاثنين معاً . والمجتمع بالرجل وحده كشخص بيد واحدة أو برجل واحدة . ولا تستطيع المرأة أن تساهم مع الرجل فى تكوين الأسرة الصالحة المثمرة وبناء صرح التقدم والرقى وهى ساذجة كما أنه لا يمكن لها أن تضع يدها فى يد زوج ترغم على الاقتران به ولا تحبه ولا ترغب فيه ولا يمكن أن تكون معه أسرة طيبة منتجة.

ومعنى ذلك أنه من التقدمية أن يكون للمرأة الحق كل الحق فى تقرير مصيرها ورسم مستقبلها والمساهمة فى صنع الحياة الإنسانية واختيار الزوج الذى ترتضيه لنفسها ومن الرجعية الحمقاء حرمانها من هذا الحق الطبيعى .

وخلاصة القول فى هذا الموضوع أن كل فكر أو عمل أو نظام يعود بالخير والتقدم والقوة على الناس يعتبر تقدمياً . وأن كل فكر أو عمل أو نظام يرجع بالناس القهقرى ويقعد بهم عن النهوض والتقدم والقوة يعد رجعياً تقهقرياً سواء كان قديما أو حديثاً ، وسواء كان يمينيا أو يساريا .

لا خير فى طاعة تقوم على الإكراه

الشيء الذى يقوم على الإكراه والإرغام لا يعيش طويلا ولا يثمر ولا ينتج ، والشيء الذى يكون المرء مكرها على أخذه لا يجد فيه متعة ولا لذة . أما الشيء الذى يأخذه الإنسان عن محبة ورغبة فإنه يتمتع به ويرتاح إليه . وما يأتى بالحب والرغبة والاقتناع يدخل القلب ويضرب بجذوره فى أعماقه فينمو ويثمر ولا يمكن اقتلاعه . وما يأتى بالاكراه والإجبار لا يتجاوز حد الأذن واللسان ولا تدخل جذوره مسامات الجلد . وسرعان ما تحمله رياح التقلب والتغيير .

وكم يصدق هذا القول على اعتناق الأديان والمذاهب واتباع المبادىء والأنظمة . فالدين أو المذهب الذى يحمله الناس مكرهين مجبرين لا يدخل فى عقولهم وقلوبهم فلا ينفع ولا يفيد ، ولا يلبث أن يلفظوه حين تزول القوة التى فرض بها . فكأنه طعام غير مناسب للجسم لا يلبث أن يتقيأه آكله ، أو كأنه نبتة وضعت فى تربة غير صالحة وجو غير مناسب فلا تلبث أن تذبل وتموت .

وهنا تتجلى لنا مشرقة الحكمة فى قوله تعالى فى كتابه العظيم القرآن الكريم :

« ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » . وفى قوله جل شأنه : « لا إكراه فى الدين » .

كذلك أى نظام سواء كان سياسيا أو اقتصاديا أو اجتماعيا يعتمد فى تطبيقه ونشره على الإكراه والقوة لا ينمو ولا يثمر وينهار بانهيار القوة التى يقوم عليها . ولا يحمله الناس فى قلوبهم بل يحملونه بأيديهم وألسنتهم . وما يحمل فى القلب لا يسقط .

والأعوان والأنصار الذين يشترون بالمال أو يجلبون بالقوة والاكراه لا خير فيهم ولا يرتجى منهم عون حقيقى ، فهم مثل الجنود المرتزقة الذين لا يستطيعون إحراز النصر فى ميدان الحرب، أو مثل الكلب الذى يجر بالحبل فلا ينفع للصيد ولا للحراسة .

والمرء الذى يساق بالعصا للقيام بالعمل وتأدية الواجب لا يخلص فى عمله ولا يتقنه .

والزواج الموفق الناجح ما يقوم على الحب والاحترام المتبادلين، والزواج الفاشل ما يفتقر إلى ذلك. والزوجان لا يخلص كل منهما للآخر ولا يطيعه ما لم يحمل فى قلبه المودة والإعجاب ، والحب من جانب واحد لا يكفى لبناء الحياة الزوجية السعيدة .

ولذلك أقول أنه لا خير فى الطاعة الزوجية التى يطلبها بعض الأزواج من زوجاتهم بالمحاكم ودور القضاء . فالطاعة التى تأتى

بالمحكمة طاعة زائفة كاذبة لا تلبث أن تنكشف عن عصيان وفرار . فالطاعة الحقة المثمرة مصدرها وطريقها القلب المحب العاشق وليس المحكمة الآمرة الناهية . فلا خير فى طاعة لا يدفع إليها قلب ينبض بالمودة والإخلاص . هذا وأصحاب المستويات العالية لا يطلبون طاعة زوجاتهم فى المحاكم ودور القضـــاء بل يطلبونها من القلوب والنفوس .

التحرر الحق

خير ما يحرر الذليل المهين من الذلة والمهانة هو إشرابه رحيق العزة والكرامة، وخير ما يحرر العبد التابع من حياة العبودية هو أن يغرس في نفسه روح الحرية والاستقلال. ولذلك أقول أنه لا يكفي في تحرير العبد من حياة العبودية فك رقبته وإخلاء سبيله فما يحرره تحريراً فعليا هو أن تغرس فيه روح التمرد على حياة الرق والعبودية. فإذا ما أطلقت سراحه دون أن تشربه روح الحرية والسيادة أمكن أن يعود إلى حياة الرق والعبودية.

وما يقال عن الفرد يقال عن الأمة، فالأمة التي تنتزع قيودها وأغلالها من يديها ورجليها ولم تنتزع من نفسها وفكرها يسهل وضع هذه القيود والأغلال في يديها ورجليها مرة أخرى. وليس أدل على ذلك من الأمة العربية التي سهل على الاستعمار الغربي أن ينتزعها من الحكم التركي في العصر الحديث، وشاهد آخر هو ما حدث في مصر عندما تعرضت للعدوان الثلاثي سنة ١٩٥٦ م فقد أراد نفر من ذوي النفوس الضعيفة أن يستسلم للمعتدين ويسمح لهم بالعودة إلى احتلال قناة السويس. وهذا يعني أن التحرر الحق يجب أن يبدأ بالروح والعقل قبل الشكل والجسم، لأن تحرير الأجسام والأبدان مستمد من تحرير العقول والأرواح. ولا غرابة

فى ذلك فالشعوب الحرة المستقلة لم تبن صرح حريتها واستقلالها من المستعمرين الطغاة إلا بعد أن تحررت نفسيا وفكريا من العبودية والتبعية، فالحرية شجرة منبتها وتربتها النفوس والعقول وليس الأجسام والأبدان . ولذلك رأينا الثورات الوطنية المسلحة تسبقها دائماً ثورات فكرية ونفسية . وليس أدل على ذلك من ثورة الإسلام الكبرى والثورة الفرنسية التى وقعت عام ١٧٨٩م والثورة الشيوعية الروسية التى قامت سنة ١٩١٧ م . فبالإسلام تحرر العبيد الأرقاء من السادة الأشداء ، وتحرر العرب من التبعية والعبودية للفرس والروم . وما لبثوا أن تقدموا على هذين الشعبين. فالرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) لم يمد أتباعه من العرب والمسلمين بالمال والذهب لتحريرهم بل نفخ فيهم من روحه الحرة الثائرة وغرس فى نفوسهم وعقولهم روح الثورة والتمرد على الظلم والعبودية، وأضاء جنبات صدورهم و نفوسهم المظلمة بأفكار الإسلام النيرة التحررية . فهبوا يتحررون ويحررون ويحطمون قيودهم وقيود غيرهم ، ويجاهدون فى سبيل الله ويقيمون دولة الإسلام العظمى ويبنون الحضارة العربية الإسلامية الكبرى حضارة العصور الوسطى .

ومن العقبات فى تحرر الشعوب افتقارها إلى قيادات ثورية تحريرية ، وليس أدل على ذلك من الشعب العربى فى مصر . فقد

كان فى العهد الملكى البائد مكبلا بقيود الاستعمار السياسى والاقتصادى والعسكرى ولعل ذلك يرجع إلى أن قيادته السياسية السابقة كانت قفل قيده وغله . ولما انكسر ذلك القفل وبرزت قيادة واعية حرة ثائرة أخذت مصر تتحرر عسكريا وسياسيا واقتصاديا واجتماعيا .

ولكن هذا التحرر لن يكون عميق الجذور راسخ الأركان شامخ البنيان مالم يرسخ فى نفس الشعب وفكره ويسرى فى لحمه ودمه .

قد يقول قائل: إن الأوضاع الاقتصادية الفقيرة قد تدفع بعض الدول إلى التبعية للدول القوية الغنية . فيقال له : إن الدول الحرة الأبية لا تبيع حريتها واستقلالها بالمال والذهب ، كما أن الحر الكريم لا يبيع حياته الحرة بالذهب والمال . ولا أعدو الحقيقة إذا قلت إن الدولة وهى تنتهج سياسة حرة مستقلة تلقى من الأيدى التى تمتد لمصافحتها ومساعدتها أكثر مما تلقاه وهى تدور فى فلك دولة أخرى . وخير شاهد على ذلك مصر فقد كانت قبل ثورتها المباركة التى قامت عام ١٩٥٢ م مكبلة بقيود الاستعمار الغربى مغلولة اليدين فلا تستطيع أن تمد يدا ولا تستطيع يد أن تمتد إليها . ولما انتفضت بثورتها الجبارة المشهورة وانكسرت القيود والأصفاد وانتهجت سياسة حرة مستقلة ومدت يدها وجدت الأيدى الكثيرة

تمتد إليها لتصافحها وتساعدها . أضف إلى ذلك أن الدولة فى ظل الحرية والاستقلال تزداد إمكانياتها وتقوى شخصيتها ويحدث العكس فى ظل التبعية والعبودية . ويدل على ذلك فرنسا فهى فى ظل السياسة المستقلة الحرة التى اتبعها الجنرال ديجول الذى تمرد على التبعية للسياسة الأمريكية صارت أقوى اقتصاداً وأعظم قوة عسكرية وأعلى قيمة دولية منها فى ظل السياسة السابقة التى كانت فيها مرتبطة بعجلة السياسة الأمريكية . وخرى الكلام أن التحرر الحق الفعلى لا يكون بكسر القيود والأغلال من الأيدى والأرجل بل بكسرها من النفوس والعقول .

مصلحة كل إنسان فى اتباع طريق الحق والأمانة

كل إنسان له مصالح متعددة فى هذه الحياة يسعى لتحقيقها ليحيا ويعيش ، ومصالح الناس متشابكة متداخلة ، ومحور العلاقات البشرية تبادل المنافع والمصالح . ويختلف الناس فى اتباع الطرق المؤدية إلى بلوغها واتخاذ الوسائل والأدوات اللازمة لتحقيقها تبعاً لاختلافهم فى عقولهم وطباعهم وأخلاقهم ومذاهبهم . فالمرء العاقل الشريف يتبع طريق الحق والأمانة ويتخذ الوسائل الشريفة لتحقيق مصالحه وأهدافه. أما الدنىء اللا أخلاقى فلا يهمه إلا تحقيق مصالحه وأهدافه بأى طريقة وأى ثمن دون تقيد بشرف ولا وازع من ضمير .

والمتأمل المتفكر يتبين له أن الذين يسلكون سبيل الشرف والأمانة لتحقيق مصالحهم ومنافعهم يربحون ويفوزون بها . وأن الذين لا يتقيدون بمبادىء الحق والعدل يخسرون مصالحهم فى الدنيا والآخرة . ويتبين له أيضا أن مصلحة كل إنسان فى اتباع طريق الحق والصدق والأمانة . واجتناب سبيل الباطل والغش والانحراف . ويدل على ذلك وقائع الحياة وأحداثها وتجاربها . فالمال المختلس لا يسمن ولا يغنى من جوع، ولا يشبع ولا يقنع .

ويطير هباء من يد سارقه. فالمال الحلال يبقى ويثمر والمال الحرام يتبخر ويذهب سدى . وقليل من المال الحلال خير وأبقى من كثير من المال الحرام. هذا ولابد من وقوع الحرامى السارق فى قبضة العدالة إن عاجلا أو آجلا ، فيدفع أضعاف المال الذى اكتسبه بالغش والحرام. وخلط المال الحرام بالحلال كمزج الماء القذر بالماء العذب الزلال .

والذى يعتدى على الناس ويظلمهم يقع فى النهاية فى يد العدالة فيحصد ما زرع ، وإذا أفلت من عدالة البشر فلن يفلت أبداً من عدالة السماء .

وما من يد إلا يد الله فوقها ولا ظالم إلا سيبلى بأظلم

أما الشخص الذى يلتزم جانب الحق والاستقامة فى حياته ولا يؤذى أحداً بلسانه أو يده فإنه يكسب محبة الناس له ورضا الله عنه ، وذلك أعظم ثواب وأحسن مكافأة فضلا عن أنه يسلم من الوقوع فى المشاكل والمتاعب وغياهب السجون، ويلقى خيرا ، فالاستقامة طريق السلامة والأمانة أحسن سياسة وسبيل الفلاح والسعادة ، ومن عمل صالحاً فلنفسه ومن أسا فعليها. والتاجر الذى يغش ويستغل فى تجارته ينفر الزبائن المشترين منه فيخسر ، بينما التاجر الذى ينصح زبائنه ولا يطمع فيهم ولا يستغلهم ويكون سهلا سمحا فى البيع والشراء يجذبهم إلى محله ويربح كثيراً .

ويحدثنا التاريخ أن القادة الذين انحرفوا عن طريق شعوبهم وعادوها حرصاً على مناصبهم ومصالحهم الذاتية أسقطتهم فى النهاية شعوبهم عن مراكزهم ومناصبهم ، فخسروا مصالحهم وأنفسهم ، أما القادة الذين آمنوا بشعوبهم ومشوا معها وخدموها فأحبتهم شعوبهم ووضعت ثقتها فيهم فحفظوا مناصبهم ومصالحهم وعاشوا فى قلوب الناس ونالوا علوا فى الحياة والممات .

وتبنى الاستعمار البريطانى الحركة الصهيونية العدوانية الباطلة منذ مطلع القرن الحالى وساهم فى قيام دولة إسرائيل على أرض فلسطين العربية ضماناً لبقاء نفوذه ومصالحه الاستعمارية فى العالم العربى . فأثار بذلك سخط الأمة العربية عليه ودفعها إلى مقاومة عدوانه عليها . فخسر الكثير من مصالحه ونفوذه فى البلاد العربية، ولو أنه لم يساهم فى إقامة الباطل الصهيونى والحفاظ عليه لما خسر مصالحه .

وورث الاستعمار الأمريكى الاستعمار البريطانى فى تبنى إسرائيل ورعاية باطلها وعدوانها فاكتسب نقمة الأمة العربية عليه فخسر بسبب ذلك الكثير من مصالحه الاستعمارية فى العالم العربى . ولو أنه اتخذ موقفاً عادلا منصفاً من القضية الفلسطينية لصان ما خسر من مصالح ومواقع .

والعالم اليوم متعطش إلى الأمن والسلام ، ويؤرقه شبح الحرب العالمية الثالثة الذرية ، وذلك ناتج عن طغيان شريعة الغاب وفرعنة الظلم والباطل على مبادىء الحق والعدل والرحمة . فلن يسود العالم الأمن والسلام إلا بسيادة مبادىء الحق والعدل والقيم الأخلاقية ، ولن يعرف الناس معنى الحق والعدالة إلا بالإيمان بالله تعالى والعمل بسنته والتحلي بأخلاقه وآدابه السماوية .

يتبين لنا أن مصلحة كل إنسان فى اتباع العدل والحق والأمانة واجتناب الظلم والباطل والخيانة . فما يكسب بالحق والعدل والحب والأمانة يبقى ويثمر وما يكتسب بالظلم والباطل والاكراه لا يثمر ولا يغنى ويطير هباء ، والمال الحلال مكسب ومنفعة وثمر طيب ، والمال الحرام خسارة وضرر وثمر خبيث .

القوى حقا ...

الله سبحانه وتعالى قوى رحيم وقدير عزيز ، وقدرته فوق طاقة البشر ، وهو رمز القوة الرحيمة الراحمة ، وتتجلى قدرته التى لا تحد فى خلق هذا الكون العجيب المتقن المحكم . وفى تدبيره تدبيراً حكيما، وفى خلق الموت والحياة. وفى كل شىء له آية تدل على أنه جل شأنه واحد أحد فى القوة والقدرة والحكمة . فلو كان الله سبحانه وتعالى ضعيفاً لما آمن به الناس ولما عبدوه وأطاعوه ، والأديان السماوية حملها الله تعالى لرجال أقوياء أكفاء قاموا بنشرها فى أنحاء المعمورة .

والإسلام الحنيف انتشر وعز وساد فى الأرض على أيدى ناس مؤمنين أقوياء على رأسهم رسول الله محمد (صلى الله عليه وسلم) وأبو بكر وعمر وعلى وخالد بن الوليد وأبو عبيدة وسعد بن أبى وقاص وعقبة بن نافع وطارق بن زياد وسواهم. وقد دعا رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام الله تعالى أن يعز الإسلام بأحد العمرين: عمرو بن هشام المعروف بأبى جهل أو عمر بن الخطاب .

وقد كانا من رجالات قريش الأقوياء ، وقد استجاب الله لدعائه فهدى عمر بن الخطاب إلى الدخول فى الإسلام . فرفع

رأسه به وانتقل من مرحلة الدعوة السرية إلى الدعوة العلنية .

وقد قام بالفتوحات العربية الإسلامية وأقام الدولة العربية الإسلامية التى امتدت إلى فرنسا غرباً والصين شرقاً مسلمون أقوياء . وقد توقفت تلك الفتوحات العظيمة وضعفت الدولة العربية الإسلامية العظمى وانحلت فى غياب المسلمين الأقوياء .

وكذلك الدول والإمبراطوريات والحروب والغزوات التى حدثت قبل الإسلام وبعده قام بها رجال أقوياء ، وما حصل من تطوير للحياة البشرية وتقدم فى شتى ميادين الحياة ونهضات علمية وأدبية وسياسية واقتصادية واجتماعية تم على أيدى ناس أقوياء أشداء .

وأشعل نيران الثورات الوطنية والإنسانية وهدم معاقل الظلم والباطل والفساد وأقام منائر الحق والعدل ناس أولو بأس وعزم وقوة وإيمان . فلا يحق الحق ولا ينصب ميزان العدل ولا يسود الأمن والسلام والنظام إلا على أيدى الأقوياء الرحماء . ولا يتزعم الناس ولا يقودهم إلا الأقوياء الشجعان . وفى كل زمان ومكان ترى الأقوياء أصواتهم قوية مسموعة. وكلماتهم مفهومة يصغى إليها، وحقوقهم محفوظة وكرامتهم مصونة فلهم لباب الحياة ولحمها وللمستضعفين قشورها وجلدها . ولا ينتصف فى هذه الدنيا إلا الأقوياء الأعزاء . أما المستضعفون فيظلمون ويؤكلون .

فالعدالة المطلقة لا وجود لها فى الأرض . فهى فى السماء وفى الدار الآخرة . ولم يشهد الناس فى الحياة الدنيا من العدالة إلا ومضات خاطفة فى فترات قصيرة عابرة على أيدى الرسل والأنبياء والمصلحين . فالعدل فى الدنيا كما قال أحد الشعراء :

لا عدل إلا إن تعادلت القوى وتصادم الإرهاب بالإرهاب

فعلى قدر قدرة المرء الذاتية يقدره الناس ويحترمونه ، وعلى قدر قوة الدولة الذاتية تنصفها الدول الأخرى وتحفظ لها حقوقها وتصغى إليها . ولن يسود العدل والأمن والسلام الأرض مالم يصر البشر أنبياء وملائكة ومصلحين وحكماء . وهيهات هيهات أن يكون ذلك فى الحياة الدنيا .

فالأقوياء الرحماء المصلحون نفحة من نفحات الله وهبة من هباته يمن بها جل شأنه على الناس فى فترات عابرة ليضيئوا فى ظلمات الباطل والطغيان، وليقيموا منائر فى طريق الحياة وليهدموا قلاع الظلم والعدوان ،ويصلحوا أحوال البشر .

لذلك يجدر بمن يريد أن يعيش حراً كريماً عزيزاً فى هذه الدنيا أن يكون قوياً قادراً رحيما . فعلى قدر مقدرته وطول باعه ينتصف ويعيش عزيزاً سيداً .

ولكن من هو القوى الرحيم ياترى ؟

القوى الرحيم يكون متسلحاً بالعلم والإيمان والأخلاق والمبادىء الإنسانية . فمن كان أعزل من هذا السلاح كان ضعيفاً عاجزا .

والعاقل الحكيم قوى عزيز والجاهل السخيف ضعيف ذليل . والشجاع المقدام من الأقوياء الأعزاء . والجبان المتخاذل من الضعفاء الأذلاء : والسليم المعافى قوى والمريض العليل ضعيف .

وقوى عزيز من يعتمد على نفسه ويتوكل على الله فى حياته . وضعيف ذليل من يكون عالة على غيره ويعيش فى حمى الآخرين . فالاعتماد على النفس قوة وعزة وكرامة وحرية والاتكال على الغير ضعف وذلة وعبودية . وليس أقوى من شخص يعتصم بحبل الله تعالى .

ولا يعد قوياً شديداً من لا يضبط نفسه ولا يمسك أعصابه عند الإثارة والإغضاب فتقيمه كلمة وتقعده أخرى . فالقوى الشديد تراه يضبط نفسه ولا يخرج عن عقله واتزانه عند الغضب كما قال رسول الله محمد (صلى الله عليه وسلم) : ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب .

والمنظم المرتب المنضبط فى حياته يقوى على الفوضوى المنفلت المنحل . وكم يكون قوياً عزيزاً من يكون سيد نفسه لايجرفه تيار شهواته وغرائزه . فتيار الشهوات والغرائز لايجرف

إلا الضعفاء المنحلين . ومن الضعفاء المساكين الإمعة الذى يقلد غيره تقليداً أعمى ويكون ذيلا لغيره ولا ترى له شخصية واضحة مميزة ولا يثق بنفسه . أما الشخص الذى يثق بنفسه ويتخذ له أسلوباً خاصاً به فى أقواله وأفعاله فهو قوى شديد .

والحياة الحرة المستقلة الكريمة لا يحياها إلا الأقوياء الأعزاء الأحرار . أما الضعفاء الأذلاء فنصيبهم حياة الذل والعبودية والتبعية .

ومن صفات القوى المتين الصبر على المشقات والشدائد التى لا يقوى على احتمالها الضعيف المسكين .

ومن يبنى ويعمر أقوى ممن يهدم ويخرب. فعملية البناء والتعمير تحتاج إلى جهد كبير وثمن كثير ووقت طويل . أما عملية الهدم والتخريب فيمكن إجراؤها فى وقت قصير وبثمن قليل وجهد ضئيل .

ومن ذاق حلو الحياة ومرها واخشوشن فى الحياة وعمل تحت ضوء الشمس وحرارتها كان أصلب عوداً وأوفر طاقة وقوة من المترف المنعم الذى لم يعش إلا فى ظلال الترف والرخاء .

والمال من وسائل القوة والسلطة والعزة . أما الإملاق والفقر المدقع فمن أسباب الضعف والقصور والتأخر .

والطموح من معانى القوة النفسية والقدرة الذاتية . أما الخزل فمن معانى الضعف والخور والقصور والتخلف .

ويقوى المرء ويعز ويسود بالشرف والأمانة والاستقامة ويضعف ويذل بالدناءة والخيانة والانحراف .

وكم يقوى الإنسان ويربح وهو متعاون مع أهله وإخوانه ومرتبط بهم . وكم يضعف ويخسر وهو منشق عنهم ، وسائر فى طريق غير طريقهم .

ولباب القوة الخلاقة الغلابة الحكمة والإنسانية والرحمة . فالقوة العاقلة الرحيمة تنفع صاحبها وتنفع الناس وتوفر لهم الحياة الحرة الكريمة . لذلك نالت إعجاب الناس وتقديرهم وطاعتهم . وهذا هو السر فى عبادة الناس لله تعالى القوى الرحيم الحكيم . أما القوة الجاهلة الحمقاء اللاانسانية فإنها عقيمة ضارة بصاحبها وبالناس . فيمقتها الناس وينفرون منها ، وتكون هشة قصيرة الأجل لا تلبث أن تلقى مصرعها ، والضعيف المسكين طعام للقوى الظالم . لذلك كان القوى الرحيم العادل خيراً عند الله والناس من الضعيف المسكين ومن القوى الظالم . وفى ذلك قال رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير » . فالمؤمن القوى كالنور القوى والمؤمن الضعيف كالنور الضعيف .

قرابة الخلق والدين فوق قرابة الدم والطين

أقرب الأبناء إلى قلب الوالدين أكبرهم عقلا وأحسنهم خلقا وأكثرهم طاعة لهما ، ويمقت المرء ابنه أو أخاه إذا كان سيء الخلق والسلوك، ويدخل المرء فى قلوب الناس بالفهم والخلق الحسن والملاحة ، وينفرون من السخيف السفيه ، ويفضل الناس البعيد الغريب إن كان عاقلا حسن الخلق على القريب إذا كان جاهلا سيء التصرف كما قال أحد الحكماء : « عدو عاقل خير من صديق جاهل» وقال الله تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . وذلك يعنى أن المرء يصير بالعقل الواعى والخلق الحسن قريبا من الله تعالى والناس، وبالجهل وسوء الخلق يصير بعيداً عنهم ،وأن القرابة تكون بالفهم والملاحة ولا تكون بالطين ولا بالدم ، وقرابة الخلق الحسن والدين فوق قرابة الدم والطين . وفى ذلك قال رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم : « إن أهل بيتى يرون أنهم أولى الناس بى وليس كذلك . إنما أوليائى منكم المتقون من كانوا وحيث كانوا » .

ولنا أن نتساءل : أيهما أفضل ، قريب مليح أم بعيد مليح ؟ لا شك فى أن القريب المليح مقدم على البعيد المليح ، فالأقربون

أولى بالمعروف . أما القريب العاطل فيفضل عليه البعيد المليح . فالمهم توافر الملاحة وحسن الخلق والعقل .

وكيف يصير المرء مليحاً قريباً من قلوب الناس وعقولهم ؟ يكسب المرء رضا الله عنه ومحبة الناس له بالتحلى بالعقل المستنير والخلق الكريم . ومن الخلق الكريم العمل والنشاط والإنتاج وخدمة الناس وإعطاؤهم والأخذ منهم ومشاركتهم فى أفراحهم وأحزانهم والسير معهم . وبالتجرد من الأثرة والأنانية والتحلى بالتضحية والإيثار ووضع المصلحة العامة فوق المصلحة الخاصة .

والعالم المبصر يكون قريباً من الناس . أما الجاهل الأعمى فيعيش غريباً بينهم بعيداً عنهم .

وفى هذا المعنى قال رسول الله محمد (عليه الصلاة والسلام) :

«تعلموا العلم، فبه يعرف الحلال من الحرام وهو منار الجنة ، وهو الأنيس فى الوحدة والصاحب فى الخلوة والدليل على الدين والمصبر على الضراء والوزير عند الأخلاء ، والغريب عند الغرباء».

وقال حكيم « إن اليتيم يتيم العلم والأدب » .

ولا يغيب عن البال أن الخلق الكريم من العقل السليم المستنير .

ومن ذلك كله نخلص إلى القول بأن :

قرابة الدين والأخلاق والأدب

فوق القرابة فى الأحساب والنسب

حاجة الناس إلى العلم والدين

الإنسان جسم وروح وعقل فلا يكون الإنسان بالروح وحدها ولا بالجسم وحده، بل بالجسم والروح والعقل. والبدن وعاء الروح والعقل. وكما أن السائل ينساب على الأرض إذا انكسر وعاؤه وتحطم كذلك يخرج العقل من الرأس إذا انشق وانفلق، وتغادر الروح البدن إذا تحطم وتهشم، ولكنها تخرج إلى السماء لا إلى الأرض، والروح تحرك الجسم وتسيره، وإذا علت الروح وسمت علا معها الجسم وسما وإن سقطت وانحطت سقط معها وانحط.

وللجسم والروح مطالب وحاجات. فالجسم يحتاج إلى مأكل ومشرب وملبس ومسكن وعلاج ودواء ووسائل سفر وانتقال وإلى أدوات تهذيب وتجميل وتنظيف، وما إلى ذلك من حاجات الحياة ومتطلباتها المعيشية المادية. والنفس كذلك تحتاج إلى تهذيب وتغذية ولباس وتجميل وتزيين.

والعلم وحده بشتى فروعه وألوانه يوفر للجسم جميع مطالبه وحاجاته الحياتية المادية الضرورية منها والكمالية. أما الروح فإنها تجد حاجاتها المتنوعة فى الأديان السماوية وسائر ألوان

الثقافة الإنسانية الهادية البناءة. فالأديان السماوية والثقافة الإنسانية تصل الإنسان بالله تعالى خالقه، وتعمر قلبه بالإيمان به جل وعلا، وتبعث فيه ضميره الحي ونزعته الإنسانية، وتغرس في نفسه حب الخير والفضيلة، وتطهر صدره من نوازع الشر والرذيلة، وتعلمه مكارم الأخلاق، ولا شيء يجعل سلوك المرء مستقيما طيبا وخلقه كريماً عظيما وعمله خيراً صالحاً كالإيمان بالله وتقوى الله، والإنسان الذى يؤمن بالله ويطيعه ويتقيه لا يقول ولا يفعل إلا خيراً، ولا يأخذ ولا يعطى إلا طيباً، ويستخدم ما تحت يده من قوى العلم وطاقاته فى الخير والبناء والتعمير بدلا من استعمالها فى الشر والهدم والتخريب.

أما الشخص الذى لا يعرف الله ولا يتقيه ولا يؤمن بالقيم الأخلاقية والمبادىء الإنسانية فتراه لا يسمو على الحيوان فى أقواله وأفعاله ولا يحلل ولا يحرم ولا يتورع عن ارتكاب المنكرات والمحرمات، ويستخدم ما فى حوزته من قوى العلم وإمكاناته فى الشر والأذى والهدم بدلا من استعمالها فى الخير والنفع والبناء. والحياة لا تصير جميلة طيبة، ولا تكون صافية آمنة إلا بالمؤمنين الأبرار، ولا يعكر صفوها ولا يحرم الناس نعمة الأمن والسلام إلا الذين لا يعرفون الله ولا يتقونه ولا يؤمنون بالمثل العليا والأخلاق والفضائل. والحياة بلا إيمان بالله

وبلا فضائل وأخلاق ومبادىء إنسانية تكون جحيما لا يطاق ، ويدل على ذلك ما عاناه العالم فى الماضى وما يقاسيه اليوم من ويلات الحروب الاستعمارية العدوانية المحملة بمآس وجرائم ومظالم ارتكبها استعماريون مجردون من تقوى الله ومبادىء الحق والعدل والإنسانية والقيم الأخلاقية ،

وما يزال العالم اليوم يؤرقه شبح حرب ذرية هيدروجينية تحمل فى بطنها نهاية العالم وانتحار الجنس البشرى . وإذا قدر لها أن تقع فلن يثيرها إلا المستعمرون الذين لا يعرفون الله ولا يؤمنون بالفضائل والأخلاق .

ومعروف أن الأديان السماوية والعلوم الإنسانية هى المصدر الوحيد للإيمان بالله والمثل العليا والقيم الإنسانية .

والعلم يعالج الأجسام المريضة العليلة ويداويها بينما الدين يعالج النفوس المريضة ويشفيها مما يصيبها من قلق واضطراب واهتزاز إزاء أحداث الزمان ونوائب الدهر وصدمات الحياة ويبعث فيها راحة نفسية وسكينة قلبية وصفاء ذهنياً . فالمؤمن بالله حقاً يؤمن بالقضاء والقدر خيره وشره فيواجه الحياة بخيرها وشرها وحلوها ومرها رابط الجأش والنهى ، راضى النفس مرتاح البال ، فهو معتصم بقوله تعالى : « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله

لنا » . وإذا ما أصابته مصيبة أو طارت من يده فرصة ثمينة لم يتداوله القلق والندم لأنه متحصن بقوله تعالى: « الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون » وبقوله عليه الصلاة والسلام: « استعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أنى فعلت كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل . فإن لو تفتح عمل الشيطان ». والعلم يحارب الآفات والأوبئة والأمراض التي تصيب الأجسام والأبدان ، أما الدين فهو يحارب الأمراض الخلقية والنفسية والآفات الاجتماعية . وكثير من الأمراض الجسمية من مضاعفات الأمراض الخلقية والنفسية .

والدين يشرب الإنسان مبادىء الحق والعدل والإخاء والمساواة والحرية والأخوة الإنسانية فقد قال الله تبارك وتعالى : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

والدين يزن الناس بميزان العلم والإيمان والتقوى والأخلاق كما قال تعالى : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » و « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » .

والدين يقيم تعادلا وتوازناً بين الروح والمادة ، لأن الإنسان لا يمكنه أن يعيش بالروح وحدها ولا بالمادة وحدها بل بالاثنين معاً كما أن النبات لا يعيش بالماء وحده ولا بالتراب وحده بل

بهما معاً ، والويل للإنسان من طغيان المادة على حياته وسلوكه ، ففى التوازن والتعادل بين القيم الروحية والمادية أمنه وسلامه وسعادته وحياته الحرة الكريمة .

والدين يجعل الإنسان يحسن استخدام العلم بقواه وطاقاته الهائلة لأن العلم سلاح ذو حدين فإن تولاه طيبون صالحون أبرار أحسنوا استعماله ونفعوا به البشر وإن تولاه أشرار خبثاء أساءوا استخدامه واستعملوه فى الشر والهدم والتدمير .

والدين يحث على العلم والعلم يدل على الدين كما قال الله تعالى : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب » . و« فى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون » .

وهكذا يكون الدين والعلم متكاملين متتامين فى صنع الحياة الإنسانية الراقية .

صنع الله وصنع الإنسان

نور الشمس حين يسطع يملأ الأرض والكون كله ويبتلع أنوار الكهرباء ويطويها فلا يعود لها لزوم ، وكذلك نور القمر يكسف ليلا أنوار الكهرباء ويطغى عليها ، والنسيم العليل ينعش الجسم ويبعث فيه الحيوية والنشاط والصحة والعافية ، أما هواء التكييف الصناعى فإنه يضر الجسم أكثر مما ينفعه .

والزهر الطبيعى فيه حياة وله رائحة وطعم ويملأ العيون جمالا والنفوس سروراً والأنوف شذى وعبيراً وتستخرج منه العطور والروائح الطيبة ، أما الزهر الصناعى الذى يصنعه الإنسان فلاحياة فيه ولاطعم له ولارائحة ، فهو شكل بلا روح ومنظر بلا شذى . فالزهر الطبيعى الذى خلقه الله تعالى أنفع للإنسان من الزهر الصناعى الذى يصنعه الإنسان نفسه ؛ والأسنان الطبيعية أجمل منظراً وأكثر قوة وأيسر فى الأكل من الأسنان الصناعية .

والعسل لذيذ الطعم عظيم الفائدة فيه صحة وعافية وفيه شفاء للناس من كثير من الأمراض ، أما الحلويات التى يصنعها الإنسان فتصيب الأسنان بالتسويس وتساعد على تفاقم داء السكرى ، وبذلك يكون ضررها أكثر من نفعها .

والفواكه الطبيعية فى أكلها لذة ومتعة وفائدة وصحة وعافية ، وهى تنظف فم الإنسان وأسنانه كما تنظف باطنه ، أما الفاكهة التى يصنعها الإنسان فهى لا تؤكل ولا تشم ولا طعم لها ولا رائحة فهى قشر بلا لباب وشكل بلا روح .

وأين الشعر الصناعى من الشعر الطبيعى ؟ وأين سواد الشعر المصبوغ من سواد الشعر الطبيعى ؟ وشتان بين الصوف الطبيعى والصوف الصناعى . وليس التكحل فى العينين كالكحل الطبيعى ، وأين الجمال الصناعى الذى يأتى بأدوات الزينة وعمليات التجميل من الجمال الطبيعى الذى يهبه الله تعالى للإنسان ؟

وهل اللون الصناعى مثل اللون الطبيعى ؟ وهل تسد العين الزجاجية مسد العين الطبيعية فى المنظر والإبصار والرؤية ؟ وهل رموش العين المصنوعة مثل الرموش الطبيعية المخلوقة ؟ وهل الثدى الصناعى مثل الثدى الطبيعى ؟ وهل الرجل أو اليد المصنوعة مثل الرجل أو اليد الطبيعية ؟ وهل القلب الدخيل المزروع مثل القلب الطبيعى المخلوق ؟

وشتان بين الطابوق المصنوع والحجارة المنحوتة من الصخر الطبيعى فى المنظر والمتانة ؟

والعقل الألكترونى من ثمار العقل الطبيعى ، وواضح أن الصانع فوق المصنوع .

والإنسان يصنع التمثال والصورة . أما صاحب التمثال والصورة فمن أمر الله وحده جل شأنه .

* * *

وهناك مغنون ملهمون موهوبون ، وهناك مغنون متكلفون محترفون ، نسمع غناء الموهوبين الذين أعطاهم الله جمال الصوت وموهبة الغناء فيشنف آذاننا ويستهوى نفوسنا وينفذ إلى قلوبنا ، ونسمع غناء المحترفين المتصنعين فتنفر منه آذاننا وقلوبنا معاً .

وفى ميادين العلم والأدب والفن ترى أدباء ومتأدبين وعلماء ومتعلمين وفنانين ومتفننين ، إنتاج أصحاب المواهب السماوية فيه إبداع وجدة وابتكار وله لون وطعم ورائحة ونكهة . أما إنتاج مدعى العلم والأدب والفن فهو منقول مأخوذ من هنا وهناك ومن هذا وذاك وهو صدى وتقليد لأصحاب المواهب والعبقريات واقتفاء لآثارهم وسرقة من منازلهم .

ويحب الناس من آتاه الله حكمة أو موهبة فى علم أو أدب أو فن أو فلسفة ، وينقادون لرجال الأقدار الموهوبين من الله تعالى ، وما المواهب والعبقريات إلا من عطايا الله وهباته ، وشتى ألوان العلوم والآداب والفنون والمعارف من ثمار المواهب

والعبقريات، ويستحيل على البشر أن يصنعوا عالما عبقرياً أو فيلسوفاً حكيما أو زعيما ملهما فهذا من شأن الله تعالى وحده ، فهو ينعم على من يشاء من عباده بنعمة الموهبة والعبقرية ولله فى خلقه شئون .

وأين عدالة الإنسان ورحمته من عدالة الله تعالى ورحمته ؟ فعدالة الله شملت جميع مخلوقاته ورحمته عمت كل شيء بينما عدالة البشر لم تكن إلا ومضات خاطفة عابرة كوميض البرق عبر التاريخ والزمن، وقد أضاءها الأنبياء والرسل وتلاميذهم والمصلحون وأهل المبادىء الإنسانية والأخلاق الكريمة فى فترات قصيرة متباعدة، وهى قبس من نور الله ونفحة من نفحاته وقطرات من بحره ، ففى مجتمع البشر لا ينصف إلا القوى القادر ولا ينال حقه إلا المبصر ، أما الضعيف المسكين فيؤكل ويهضم ، والأعمى يوقع فى الحفر .

وهكذا نجد فى عطاء الله وفضله كل الخير والحق والحقيقة والجمال والسعادة والأمن والسلام والهدى والهناء ، ولا نجد شيئاً من ذلك فى غير عطائه وغير صنعه ، ونجد فى ظله وطريقه السلامة والعزة والسيادة والفلاح ، ونجد فى غير طريقه الشر والباطل والوهم والسراب والضلال والذلة والضعف والشقاء ، ومن اعتز بغير الله ذل وهان .

وما أنزله الله تعالى يملأ السمع والبصر، ويدخل القلب ويرضى البصر والبصيرة ، ويروى الظمأ ويشفى الغليل ومالم ينزله يتبخر فى الجو ويذهب جفاء .

والمتأمل المتفكر يدرك أن الإنسان فى هذه الحياة الدنيا لاحول له ولاقوة إلا بالله تبارك وتعالى ، وأنه معلق بمشيئة الله ورحمته . ويدل على ذلك أنه معرض للموت فى كل لحظة ولا يدرى ماذا يكسب غداً ولا فى أى زمان ومكان يموت .

فآمنت بالله تبارك وتعالى إنه أحسن الخالقين ، لقد أحسن كل شيء خلقاً وصنعاً ، صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة .

مستقبل الإنسان الحقيق

من الواضح وضوح الشمس أن كل إنسان سواء كان طفلا أو شاباً أو عجوزاً معرض للموت فى كل وقت وفى أى مكان . ومع ذلك ترى الإنسان يعمل ويسعى ويضرب فى طول الأرض وعرضها ويحلق فى سمائها ويغوص فى بحرها ويصعد إلى بعض الكواكب والنجوم يحدوه فى كل ذلك طلب الرزق وحب المال والثراء والطموح إلى حياة أفضل وعيش أيسر وأروح ، والتطلع إلى هتك حجب الغيب واكتشاف المجهول ومعرفة أسرار الكون وحل لغز الحياة ، وذلك حق وصواب ، إذ لولا عمل الإنسان الدائب ونشاطه المستمر عبر الزمان وعلى توالى الأيام والأجيال لما وصل إلى ما وصل إليه من تقدم علمى ورقى حضارى ، والحضارة الإنسانية منار ضخم خالد أسهمت الأجيال الإنسانية المتعاقبة فى تشييده ورفعه وإضاءته . وكل جيل يخدم نفسه ويخدم الأجيال اللاحقة به بمساهمته فى رفع منار الحضارة الإنسانية .

والحياة الإنسانية باقية خالدة إلى ما شاء الله لها أن تبقى والأجيال متعاقبة على الفناء والزوال ، والحياة الإنسانية بنموها المتجدد وأجيالها المتعاقبة على الموت والفناء أشبه ماتكون بشجرة

دائمة الاخضرار والإيراف ، والأجيال المتلاحقة مثل أوراقها المتساقطة فكما أنه كلما سقط ورق نبت مكانه ورق جديد كذلك يظهر جيل جديد عقب الجيل الذى انتهى . وهذا هو واقع الحياة الدنيا وهذه هى سنة الله فى خلقه .

ولكن وجه العيب والخطأ فى سعى الإنسان وسلوكه أنه غالباً ما يخلط المحظور بالمباح ويأكل الحلال والحرام ويلبس الحق بالباطل . كل ذلك ضماناً لحاضره وتأميناً لمستقبله الدنيوى المؤقت العابر . وأى مستقبل للإنسان فى هذه الدنيا والأيام تمر مر السحاب وتجرى بربيع عمره . وكل يوم يمر ينقص فيه عمره ويدنى أجله ويخطو خطوة نحو الموت . ومهما عمر الإنسان فى هذه الحياة الدنيا فإنه يشعر وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة كأنه دخل من باب وخرج من باب ، فالإنسان فى هذه الدنيا ضيف زائر وعابر سبيل فقد قال تعالى فى القرآن الكريم : «وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور» .

وفى الحقيقة والواقع أن مستقبل الإنسان الحقيقى الدائم هو فى الحياة الآخرة حياة البقاء والخلود وليس فى الحياة الدنيا دار الموت والزوال . وهذه هى حقيقة الحقائق العظمى . ولم لا ؟ والفرد فى هذه الدنيا معرض للموت فى كل لحظة ولا يدرى ما الله فاعل به غداً . ولا يضمن وجوده فى الحياة الدنيا ساعة

من الزمن . ولا يدرى كيف ولا متى ولا أين يرحل عنها . وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وماتدرى نفس بأى أرض تموت ! وهذه هى الحقيقة الكبرى الساطعة التى لا يعمى أو يتعامى عن نورها إلا كل غر مغرور أو طائش مخمور . وهى تلمع دائماً فى آفاق أولى الألباب والأبصار .

ولا يرمى هذا الكلام إلى بث اليأس والتشاؤم فى النفوس ، ولا يعنى الدعوة إلى الزهد فى الدنيا والإقلاع عن خيراتها ونعمها ومباهجها والانزواء فى زوايا الزهد والصوفية وصوامع الرهبانية والوحدانية، بل يرمى إلى بيان مستقبل الإنسان الوهمى ومستقبله الحقيقى . وعدم الاغترار بالدنيا المؤقتة العابرة والجمع بين الدين والدنيا والموازنة بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة ، وقد أشار إلى ذلك أحد الحكماء بقوله : اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً . وفى الحقيقة أن مستقبل الإنسان الحقيقى الأبدى فى الحياة الآخرة يرسم ويؤمن فى الحياة الدنيا . فمن آمن بالله تعالى وأطاعه وامتثل لأوامره ونواهيه ضمن لنفسه مستقبلا طيباً مأموناً ومن كفر بالله وعصاه فى أمره ونهيه لاقى مصيراً أسود فى الآخرة ، ونلمح صور هذا المستقبل فى الآيات الكريمة الآتية : « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها » و « الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عمــــلا »

و « من يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » .

ومستقبل الإنسان الحقيقى فى الآخرة لا يكون بالرهبانية وتطليق الحياة الزوجية فى الدنيا بل يكون بالزواج وبناء أسرة صالحة وإنجاب بنين صالحين .

ومن يقف من الحياة الدنيا موقفاً سلبياً هداما يخسر مستقبله الكريم فى الدار الآخرة ومن يقف منها موقفاً إيجابياً بناء فيتأثر بها ويؤثر فيها ويأخذ منها ويعطيها يضمن لنفسه مستقبلا زاهراً فى دار البقاء والخلود . وعلى قدر ما يساهم المرء فى البناء والتعمير والتقدم يكون حظه من النعيم والعيش الطيب فى الدنيا والآخرة .

ومن يجمع مالا وينفق منه فى سبيل الله وفى طريق البر والخير أعلى مقاماً وأعظم درجة عند الله والناس فى الدنيا والآخرة ممن يلازم الفقر والإفلاس، وممن يقبع فى زاوية البخل والشح . والمال خير وقوة فى اليد العاقلة الخيرة . وضرر وشر فى اليد الحمقاء الشريرة . والقوى الرحيم خير للناس من الضعيف العاجز ومن القوى الظالم .

ومستقبل الإنسان الحقيقى فى الحياة الآخرة يكون بالجهاد

فى سبيل الله والحق والعدل وبالثورة على الظلم والباطل والاستبداد والاستعباد والاستغلال . ولا يكون بالتزلف والنفاق والانحناء لأرباب المال والسلطان ولا بالتذلل لهم والسير فى ركابهم . ومما يضمن للإنسان مستقبلا سعيداً فى الآخرة أن يضحى بنفسه وماله فى سبيل أمته وبلاده ، وأن يؤثر إخوانه على نفسه ، وأن يقدم المصلحة العامة على مصلحته الخاصة ، أما البخيل الأنانى الانتهازى فيخسر فى الدنيا والآخرة .

والتعاون والاتحاد فى البر والحق والعدل خير وقوة وعزة للفرد والمجتمع ، وفى التفرق والانقسام والسلبية شر وضعف وذلة للفرد والجماعة ، والذى يتعاون مع الناس الأخيار الأبرار على بناء صروح الخير والحق والنور ، وعلى هدم قلاع الشر والباطل والظلام يؤمن لنفسه مستقبلا زاهراً طيباً فى الحياة الآخرة حياة البقاء والخلود والشباب النضر الدائم والصفاء والهناء والجمال السرمدى .

وخلاصة القول فى هذا الموضوع أن مستقبل الإنسان الحقيقى الدائم فى الحياة الآخرة الباقية الخالدة وليس فى هذه الحياة الدنيا المؤقتة الفانية . وهذا المستقبل يبنى ويشاد ويؤمن بالاعتصام بالإيمان بالله تعالى وطاعته والتحصن بالضمير الحى والأخلاق الكريمة والآداب السامية والمثل العليا والمبادىء

الإنسانية التى ضمنها الله جل شأنه كتبه وأديانه السماوية وأنزلها على رسله وأنبيائه ليبلغوها للناس كافة ليخرجوهم بها من ظلمات الكفر والضلال والشر والباطل إلى نور الإيمان والهدى والخير والحق والعدل ، وذلك إذا عملوا بها وتمثلوها قولا وعملا وسلوكاً .

ماتغير ومالم يتغير من الحياة البشرية عبر الزمان

الطعام والشراب حاجتان أساسيتان لحياة الإنسان ماضياً وحاضراً ومستقبلا ، وماتغير منها على مر السنين والعصور هو أدواتها وألوانها وأشكالها وأصنافها، فالأدوات والطرق والوسائل التى تعد بها أصناف الطعام والشراب وألوانهما ارتقت وتنوعت .

فنار الحطب والخشب مثلا اختفت وحلت محلها نار البترول والغاز والكهرباء ، وشرارة القدح والزناد انسحبت تاركة مكانها شرارة الكبريت والقداحة .

وهكذا تطوى سنة التطور والارتقاء وسيلة عتيقة وأداة قديمة وتستبدل بهما ماهو أرقى وأفضل من الوسائل والأدوات .

أما الطعام والشراب كحاجة جوهرية للحياة البشرية فلا تغيير فيها ولا تبديل ولا غنى عنها ولا استغناء .

والملبس والمسكن من مطالب الحياة البشرية الأساسية فى جميع الأوقات والعصور . وما تغير من الملبس والمسكن على توالى السنين والقرون هو الشكل والنوع والآلة والطريقة اللتان يعملان بهما . أما الملبس والمسكن كحاجة ومطلب فلا غنى عنهما فى كل زمان

ومكان . فالإنسان الأول اتخذ ملبسه من ورق النبات وجلد الحيوان ثم أخذ الإنسان عبر السنين والقرون يتدرج فى تطويره وترقيته حتى توصل إلى صنعه من القطن والكتان والحرير والصوف وجلد الحيوان ومواد أخرى كالنايلون والبلاستيك والمطاط ، كما تطورت وارتقت الآلات والطرق التى تصنع بها الملابس على اختلاف أنواعها وألوانها وأشكالها .

واتخذ الإنسان فى بدء حياته الكهف مسكناً له ثم سكن الخيمة والكوخ ثم صار يسكن البيت الأنيق والقصر المنيف والعمارة الشاهقة الضخمة المبنية من الحجر والأسمنت . وتطورت وتقدمت أيضا أدوات البناء وطرقه وخططه .

والسفر والانتقال من مكان إلى مكان حاجة إنسانية قديمة وحديثة لا يستغنى عنها الإنسان فى كل زمان ومكان .

وما تغير وتبدل فى دنيا السفر والانتقال هو وسائله وأدواته وطرقه . فالإنسان فى الماضى كانت وسائل سفره وانتقاله الدواب كالجمال والخيول والحمير والبغال والأفيال والعربات التى تجرها الدواب . وفى البحر سافر وانتقل بقوارب التجديف والسفن الشراعية البطيئة . ثم انسحبت هذه الوسائل والأدوات من ميدان السفر والمواصلات لتحل محلها وسائل وأدوات عصرية حديثة .

واخترعت واستحدثت وسائل سفر حديثة لم يكن لها وجود من قبل . وهى وسائل السفر بالجو كالطيارة والمركبة الفضائية . ووسائل السفر والمواصلات الحديثة تمتاز على القديمة بالسرعة الفائقة الخيالية . فهى تقطع المسافات الطويلة فى وقت قليل.وتقرب البعيد وتبعد القريب.وجعلت هذا العالم الواسع المترامى الأطراف عالما صغيرا متقاربا متشابكا متماسكا لا حواجز ولا سدود بين أجزائه . وما ترتب على ظهور وسائل السفر والمواصلات الحديثة من اتصال سهل سريع وتقارب شديد وتشابك فى المصالح والعلاقات أدى إلى سهولة وسرعة التعارف والتفاهم والتبادل والتعاون بين الناس أفراداً وشعوباً فى شتى أقطارهم وبلدانهم، وإلى نشر نور الوعى والثقافة .

والحرب ظاهرة قديمة وحديثة لدى الجماعات والأفراد ،وسببها اختلاف فى الرغبات والنزعات والاتجاهات ، وتصادم فى المصالح والأهداف كما أن من أسباب قيامها ونشوبها الطمع وحب السيطرة والغزو والاستعمار والظلم والعدوان .

والحرب طريق سليم وسنة صحيحة إذا كانت فى سبيل استرجاع حق مغتصب أو تحرير وطن محتل ، أو ردع ظالم معتد ، وستبقى الحرب حاجة ملحة وطريقاً متبعاً مادام هناك ظلم وعدوان واغتصاب وطمع وجشع .

وما تغير في الحرب وتطور على مر السنين والعصور هو أساليبها وطرقها وخططها وأسلحتها، فقد تغيرت الحرب وتطورت بأساليبها وخططها وأسلحتها وآلاتها لتطور الحياة البشرية . ففي الماضي البعيد كان سلاح الحرب الرئيسي السيف والرمح . وفي الوقت الحاضر صار سلاح الحرب المدفع والدبابة والطيارة والقنبلة الذرية والهيدروجينية . فلكل زمان فنه الحربي وأسلحته .

وظهور المرض والداء أدى إلى ظهور العلاج والدواء. فلولا الداء ما كان الدواء ، والمرض قديم قدم الحياة البشرية وغير البشرية، ولا اختلاف في وجود المرض والداء على اختلاف العصور ، ولكن الاختلاف في الداء وطرق العلاج . فعلم الطب في العصور الوسطى مثلا كان أرقى منه في العصور التي سبقتها ، وعلم الطب والدواء وطرق العلاج وأدوات العلاج ستكون في المستقبل أرقى وأفضل مما هي عليه اليوم .

وذلك يعني أن ما تغير وتطور على اختلاف العصور هو الدواء وطرق العلاج وآلات الطب ولم يتغير الداء والمرض في أي زمان ومكان وسيبقى المرض ما بقيت الحياة البشرية فهو ملازم للحياة .

وفن القراءة والكتابة فن قديم وليس فناً مستحدثاً ، وهو

اليوم أرقى وأيسر منالا وأرحب مجالا وأكثر انتشاراً وازدهاراً منه فى أى عصر مضى ، وفى الماضى البعيد كانت الكتب والمؤلفات والرسائل تكتب على العظام والحجارة وجلود الحيوانات وورق النبات ، أما اليوم وفى الماضى القريب فقد اختفت هذه الأشياء والأدوات وحل محلها الورق الأبيض المصقول كما أن أدوات الكتابة قد تطورت وارتقت

وآلة الطباعة عرفها الإنسان منذ القرن السادس عشر ، وقد كانت الكتب والمؤلفات قبل اختراع آلة الطباعة تكتب وتخط باليد ، فلذلك كان انتشار الكتب صعباً وقليلا وضيقاً ، وقد طور الإنسان آلة الطباعة حتى بلغت ما بلغته اليوم من دقة صنع وسرعة طباعة .

وعلم الزراعة قديم جداً ، وقد تطور وتغير عبر القرون والعصور وارتقى واتسع نطاقه وتعددت آلاته وأدواته .

واليوم نرى آلات وطرقاً لزراعة الأرض وحرثها وحصاد منتوجاتها لم تكن موجودة من قبل ، وهى آلات وطرق تيسر العمل وتختصر الوقت وتغنى عن الكثير من الأيدى العاملة . أما الزراعة كعلم وحاجة فستبقى ما بقيت الحياه البشرية .

وما يتطور ويتغير من الزراعة على مر السنين هو أدواتها وآلاتها وطرقها وأساليبها .

والصناعة قديمة لأن الحاجة إليها قديمة . وقد تطورت بتطور الحياة الإنسانية . وما تطور وتغير هو آلات الصناعة وأدواتها وطرقها ومصنوعاتها . وقد تطور علم الصناعة وتقدم وتشعب وبادت صناعات وظهرت صناعات جديدة لم تكن موجودة من قبل .

وعلم الفلك والأرصاد الجوية علم قديم أيضاً . وقد تطور بتطور الحياة البشرية واتسع أفقه . وما تطور ويتطور منه عبر السنين والقرون هو آلاته وأدواته وطرقه .

ويمتاز العصر الحديث عن العصور القديمة بوسائل اتصال وأجهزة إعلام سريعة كالراديو والتلفزيون والقمر الصناعى والبرق والبريد والهاتف . جعلت الاتصال والإعلام بين الناس فى أنحاء العالم أمراً سهلا سريعاً . وجعلت ما يقع فى ناحية من العالم من أخبار وأحداث ومشاكل يتردد صداه بسرعة البرق الخاطف فى الأنحاء الأخرى .

أما فى الماضى فقد كان الاتصال صعباً وبطيئاً جداً . وكان يستغرق أياماً أو شهوراً . فالاتصال الإعلامى بين الناس فى أنحاء العالم مسألة قديمة . وما تغير فى هذا المجال على العصور هو وسائل الاتصال وأجهزة الإعلام . وستبقى حاجة الناس إلى الإعلام قائمة ما بقى الناس .

والفن من أدب ورسم ونحت وغناء وموسيقى ظاهرة قديمة حديثة . وقد تطور الفن عبر العصور بتطور الحياة الإنسانية التى هى منبعه وشجرة حياته . وقد أصاب التطور أشكال الفن وأساليبه وموضوعاته . أما روحه وجوهره ووجوده كحاجة إنسانية فلم يصبها تطور وتغيير، وسيتناول التطور دائماً الشكل والمظهر ولن يصيب الروح والجوهر .

وحاجة الإنسان إلى الأخلاق والآداب قديمة وحديثة ، لأنها أساس التقدم الحضارى والمادى . وليس أدل على ذلك من أن المجتمعات البشرية تتقدم وتصلح أحوالها بصلاح أخلاق أفرادها وتتخلف وتفسد عند ما تفسد وتنحل أخلاق أفرادها .

والأخلاق من أركان الحياة الطيبة السعيدة ، ومن عناصر السلم والأمن . وهى السلك الذى ينتظم حبات العقد الاجتماعى ، وبها تنتظم علاقات الناس بعضهم ببعض ، وتستقيم أمور الناس وتصلح أحوالهم وفى هذا المعنى قال أحمد شوقى :

صلاح أمرك للأخلاق مرجعه   فقوم النفس بالأخلاق تستقم

وقال أيضاً :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت   فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وقال فى موضع آخر :

وليس بعامر بنيان قوم   إذا أخلاقهم كانت خرابا

وقال فى مقام رابع :

وإذا أصيب القوم فى أخلاقهم   فأقم عليهم مأتماً وعويلا

وفى الواقع أن النفس الإنسانية تحتاج إلى غذاء وشراب ولباس وزينة كما أن الجسم يحتاج إلى هذه الأشياء . وغذاء النفس وشرابها ولباسها وزينتها الأخلاق والآداب والمثل العليا . ولباس الجسم وزينته القماش والذهب والجواهر .

وعلى رأس الأخلاق التى نعنى الشجاعة والأمانة والصدق والنبل والرحمة والتواضع والحلم والتسامح والتعاون والاتحاد وحب الوطن والعدالة والتضحية والإيثار والنشاط والعمل . وغنى عن البيان أن الأخلاق الكريمة تنمو وتزدهر تحت ضوء شمس العلم والمعرفة والثقافة ولا تنمو فى ظلام الجهل ، والخلق الكريم والسلوك السليم من ثمار العقل السليم المستنير . ويدل ذلك على أن الناس فى كل زمان ومكان فى حاجة ماسة إلى الأخلاق والآداب، ولم يطرأ على جوهر الأخلاق وروحها تغيير وتبديل على مر السنين والقرون .

وأهم مصدر ومنبع للأخلاق والآداب والمثل العليا الأديان السماوية التى هى فى حقيقتها وجوهرها أخلاق كريمة وآداب سامية ومثل عليا . فقد أنزل الله تعالى الأديان السماوية على الأرض كما ينزل المطر عذباً صافياً من السحاب وحملها للرسل والأنبياء لهداية الناس إلى الله والإيمان به . وإذا ما اهتدوا إلى الله وآمنوا به أطاعوه وتحلوا بالأخلاق والآداب التى يأمر بها ويحث عليها . وإذا ما تحلوا بالأخلاق والآداب الإلهية السماوية انصلحت أحوالهم واستقامت أمورهم وطابت حياتهم . وواضح أن الحياة بلا أخلاق وآداب ومثل عليا جحيم لا يطاق وتشبه حياة الغاب التى تسودها الوحشية والهمجية . وإذا ما تجرد المرء من الأخلاق والآداب صار وحشاً ضارياً وحيواناً سافلا منحطا . وقد أثبت الواقع أن الجرائم والشرور التى تقع من خواء النفوس والقلوب من الأخلاق والآداب والمبادىء الإنسانية أكثر من الجرائم والشرور التى تقع من خواء البطون من الطعام والشراب .

وقد أنزل الله الأديان السماوية على الأرض وحملها للأنبياء والرسل لمصلحة البشر ومنفعتهم لا لمصلحته ومنفعته هو ، فالله ليس فقيراً إلى الناس بل الناس هم الفقراء إليه ، فهو القوى القادر العزيز الحكيم وهم الضعفاء العاجزون الجهلاء ، والقوى العليم الحكيم لا يحتاج إلى الضعيف الجهول، بل الضعيف الساذج الجاهل

هو الذى يحتاج إلى القوى العليم الحكيم كما أن الأعمى يمد يده إلى المبصر ولا يمد المبصر يده إلى الأعمى .

وذلك يعنى أن الموضوع الرئيسى للأديان السماوية ومهمتها الحقة تعليم الناس الأخلاق العالية والآداب السامية والجانب الروحى من الحياة وتهذيب الجانب المادى . ويدلنا على ذلك قوله تعالى فى القرآن الكريم : « أقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » .

وقوله تعالى أيضاً فى الصوم : « يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » .

« ولعلكم تتقون » هى حكمة الصوم .

وقد بين رسول الله محمد ﷺ حكمة الصلاة بقوله : « من لم تنهه صلاته فلا صلاة له » .

ولم يفته أن يبين لنا أيضاً حكمة الصيام بقوله : «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » .

أو ليس كل ذلك أخلاقا وآدابا ؟

والأخلاق والآداب هى القانون الطبيعى الذى يتحقق به النظام والأمن والسلام والعدالة والتعاون والاتحاد والتراحم والتعاطف والسعادة والوقاية من الوقوع فى الشرور والجرائم ،

واتباع طريق القانون الطبيعى يؤدى إلى اتباع طريق القانون الوضعى الصناعى . فلا احترام للقانون ولا تمسك به ما لم يكن هناك احترام للأخلاق وتمسك بها . فالتمسك بالقوانين مستمد من التمسك بالأخلاق والآداب ، فالعدالة تتحقق بالأخلاق الكريمة والضمائر النبيلة قبل أن تتحقق بالقوانين والأنظمة والقرارات والدساتير . وليس أدل على ذلك من أن القوانين العادلة لا تصدر إلا عن أصحاب العقول المستنيرة والضمائر النبيلة وأنه لا يمكن أن يتلاعب بالقوانين العادلة والقرارات المنصفة وفق الهوى والغرض ما لم يقم على تطبيقها وتنفيذها مسئولون يتمتعون بعقول نيرة وضمائر حية وأخلاق كريمة .

وقد علمنا التاريخ قديمه وحديثه أن التقدم الخلقى والروحى أساس التقدم العلمى والمادى ، وأن الأمم والدول تضعف وتفسد وتنحل عندما تنحل أخلاق أفرادها وتفسد آدابهم . وعلمنا أيضاً أنه لاسلام ولا إخاء ولا مساواة ولا عدالة اجتماعية إلا بالأخلاق الكريمة والضمائر النبيلة والعقول المستنيرة .

وهذا هو السر والحكمة فى رسالة الأديان السماوية التى تقوم على تعليم الناس مكارم الأخلاق والآداب وبعث الضمائر الحية النبيلة فى النفوس البشرية .

ومما علمنا التاريخ أن الحضارة الطيبة الثمار والوارفة الظلال

هى الحضارة التى تنبت وتنمو بالروح والمادة كما تنبت الشجرة بالتراب والماء ، وهى الحضارة التى تصنع من الروح والمادة كما يقام البناء من الطين والحجارة . وأى حضارة تقام من مادة بلا روح كبناء يبنى من حجارة بلا طين ، وأى حضارة تشاد من الروح وحدها كبناء يقام من الطين وحده بلا حجارة ، فلا حضارة بالمادة أو بالروح وحدها ، فالحضارة الحقة الخالدة هى الحضارة التى تقام من القيم المادية والروحية معاً .

والحضارة روح ومادة ، روحها الخلق ومادتها العلم .

والحضارة كائن حى روحه الخلق وجسمه العلم ، وطعامه العلم وشرابه الخلق .

والعلم مصدره العقل والخلق مصدره الدين السماوى .

والعلم هو العقل والدين هو الخلق .

والعلم هو الجانب المـــادى من الحياة والدين هو الجانب الروحى منها .

وكما أن المرء لا يتقدم ولا ينجح فى الحياة ما لم يكن متمتعاً بعقل مستنير وخلق كريم ، كذلك الأمة وهى صورة مكبرة للفرد لا تتقدم ولا ترتقى ما لم يزنها عقل مستنير وخلق كريم .

وبقدر ما يكون الفرد متمسكا بالأخلاق والمثل العليا يسمو

ويعلو ويبتعد عن الشرور والرذائل والجرائم ، وبقدر ما يكون المجتمع متمسكا بالأخلاق والآداب يكون أفراده متعاونين متحدين ومتراحمين متعاطفين فى جميع الظروف والأحوال ، فالاقتراب من الشر والظلم والرذيلة والفساد سببه الابتعاد عن القيم الخلقية والروحية والافتقار إلى العلم والفهم والمعرفة .

* * *

ومن شأن الدين أن يطهر قلب الإنسان من نوازع الشر والفساد وأن يوجهه إلى طريق الخير والحق والجمال، ويجذب النفس ويسمو بها ويشفيها من عللها وأمراضها ، وينشر المحبة والعدل والسلام ، ويحث الإنسان على استخدام العلم واختراعاته الكثيرة التى تصلح للنفع والضرر كالطاقة الذرية والنار والسلاح فى البناء والتعمير والخير لا فى الهدم والتخريب والشر . وفى رأيى أن البشر اليوم فى عصر القنابل الذرية والهيدروجينية والصواريخ فى هذا العصر الذى يؤرق فيه الناس شبح الحرب الذرية يحتاجون إلى التمسك بالأديان السماوية والإيمان بالله أكثر من حاجتهم إليها فى أى عصر مضى . ولا شيء يؤثر فى سلوك الإنسان ويجعله سليما شريفاً كالإيمان بالله .

ولا أخالف الحقيقة إذا قلت أن المانع من قيام حرب عالمية ثالثة هو الخوف من عواقب هذه الحرب المدمرة القاضية التى لا تبقى

ولا تذر ولا يكون فيها منتصر ولا منهزم وليس الرغبة الصادقة في السلم. والسلم الحقيقي الدائم ماقام على الحب والرغبة فيه لا ماقام على الخوف من الحرب. والسلم الذي يقوم على الخوف من الحرب سلم مؤقت معرض لأن تعصف به عواصف الحرب.

ومما يجعل قيام حرب عالمية ثالثة أمراً ممكنا غير مستحيل هو انتشار الظلم والعدوان والجشع والطمع في أرجاء العالم. وهذه هي الأسباب والدوافع إلى الحروب والشرور والجرائم. وغني عن البيان أن الأديان السماوية تدعو إلى سيادة الحق والعدل وتنهى عن الظلم والباطل والعدوان والطمع والجشع، والمؤمن بالله حقاً يتبع دائماً طريق العدل والحق ولا يسلك سبيل الظلم والعدوان ولا يطمع فيما ليس له. ولا أمن ولا سلام إلا بالحق والعدل والبعد عن الجشع والاستغلال.

ومما يجدر ذكره هنا أن صعود الإنسان إلى القمر والكواكب الأخرى لا يناقض الدين السماوي ولا يخالف الإيمان بالله. فالإنسان يبدع ويصنع ويخترع ويكتشف بهدى ووحي من العقل الذي وهبه إياه الله سبحانه وتعالى وميزه به عن سائر المخلوقات والكائنات. وهو يصول ويجول في نطاق الكون الذي يخلقه الله. وفي هذا الشأن قال تعالى في القرآن الكريم:

«اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم».

فالله لا يقيم فى القمر ولا فى أى كوكب آخر . ولما نزل الإنسان على سطح القمر لم يره ولم يجده . وهناك أشياء ما تزال أسراراً مبهمة مغلقة إذا عرفها الإنسان وأدرك كنهها صارت الأديان السماوية من آثار الماضى، ووجب وضعها عندئذ فى المتاحف ودور الآثار ، وصار وجود الله تعالى أسطورة من أساطير الأولين ألا وهى معرفة سر الروح، وبعث روح وحياة فى مصنوعات الإنسان، ومنع الموت وإحياء الموتى، فالله جل شأنه قال لنا فى كتبه السماوية أن مسألة الروح والموت والحياة من أمر الله وحده . ولا يستطيع الإنسان مهما أوتى من العلم والفهم والذكاء أن يعرف شيئاً عنها . فقد قال الله تعالى فى القرآن الكريم عن الروح :

« ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

وقال أيضاً جل شأنه عن الموت : « كل نفس ذائقة الموت » وقال سبحانه وتعالى : « كل من عليها فان » .

ولنا أن نتساءل : إذا كان الإنسان قد اخترع ما اخترع وصنع ما صنع من مصنوعات فمن هو الذى خلق الإنسان الذى اخترع هذه المخترعات وصنع هذه المصنوعات ؟ أليس هو الله سبحانه وتعالى .

وذلك يعني أنه لا تناقض ولا اختلاف بين العلم والدين، وأن العلم لا يتقدم على حساب الدين ، والدين ليس حجر عثرة في طريق التطور والتقدم . فالدين الصحيح يحث دائماً وأبداً على العلم النافع وعلى كل ما فيه خير ونفع للبشر في كل زمان ومكان . والعلم والدين في خدمة الحياة الإنسانية ، ويكمل كل منهما الآخر في توفير الحياة الطيبة السعيدة . والحياة البشرية تقوم على الاثنين معاً ولا يمكن أن تقوم على واحد منهما فقط . فالدين لنشر مكارم الأخلاق والآداب وتهذيب النفس وضبطها وتغذيتها وتربيتها ، والسمو بالروح وبعث الضمير وتوجيه العلم واختراعاته إلى طريق الخير والحق والسلم لا إلى طريق الشر والباطل والحرب .

والعلم لبناء الجانب المادي من الحياة وخدمة جسم الإنسان وتوفير ما يلزم له من مأكل ومشرب وملبس ومسكن وغير ذلك .

يفهم مما تقدم أن ما تطور وتغير من الحياة البشرية عبر السنين والقرون هو شكلها ومظهرها ووسائلها وأساليبها . أما الروح والجوهر والغاية والهدف فلم يطرأ عليها تطور ولا تغيير .

لا يعز الشعب ولا يتقدم إلا فى ظل
الحرية والديمقراطية

الكمال لله وحده خالق هذا الكون ورب العالمين ، لذلك كان الإنسان ناقصا محدود الطاقة والقدرة فى تكوينه العقلى والنفسى والجسمى . ويدل على ذلك أنه ليس فى مقدور أى شخص أن يسيطر على جميع الناس . ويستحيل على أية دولة أن تسيطر على العالم كله ، فالسيطرة على العالم كله من أمر الله وحده . فمهما كان المرء عاقلا عالما فلا يعرف إلا قليلا ومهما كان الشخص قويا قادرا فلا يستطيع أن يفعل كل شىء . وفى ذلك قال أبو نواس :

وقل لمن يدعى فى العلم فلسفة　　عرفت شيئاً وغابت عنك أشياء

والإنسان العاقل الحكيم يشعر دائماً بحاجته إلى مزيد من العلم والفهم والقدرة وأنه ما أوتى من العلم والقوة إلا قليلا كما قال رسول الله محمد (صلى الله عليه وسلم) « ما يزال المرء عالما ما طلب العلم فإذا ظن أنه علم فقد جهل » وفى ذلك دليل على رجحان عقله ومبلغ فهمه وسعة علمه . وهذا النقص فى طاقة الإنسان وقدرته جعله محتاجا إلى مشورة غيره ومعونته فى حياته الخاصة والعامة ، فى مجتمعه الصغير يحتاج إلى معونة زوجته وأولاده ووالديه وإخوته وفى

مجتمعه الكبير يحتاج إلى مساعدة أصحابه وأبناء قومه ووطنه . فالمصلحة الفردية الخاصة ينجزها جهد فردى خاص ، أما المصلحة العامة فلا يمكن تحقيقها إلا بجهد جماعى عام . والجهد الجماعى لا يتم إلا بالتشاور والتعاون والاتحاد قولا وعملا بين أفراد المجتمع وأعضاء الجماعة . لذلك أمر الله سبحانه وتعـــالى رسوله محمداً والمسلمين باتباع طريق الشورى والتعاون والاتحاد : « وشاورهم فى الأمر »،« وأمرهم شورى بينهم »،« وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » ، « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » ، « وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين » .

وأمر الله تعالى عباده المؤمنين بالشورى والتعاون والاتحاد لأنها طريق الصواب والنجاح والعزة والقوة . والاستبداد بالأمر والنزعة الفردية الانفصالية طريق الخطأ والفشل والضعف ، فالفرد وحده ناقص ضعيف لا يستطيع النهوض بمسئولية المصلحة العامة التى لا يقوم بها إلا الجماعة . وواضح أن الجهد الجماعى أقوى وأقدر من الجهد الفردى ، كما أن عدة أيد أقوى من يد واحدة وحزمة الأشعة أقوى على كشف الطريق من شعاع واحد . وعدة عيون أقدر على الرؤية الصحيحة من عين واحدة ، وبضعة أعمدة تستطيع حمل عمارة ولا يقدر عمود واحد على حملها ، وفى ذلك يقول

الانجليز «Two heads are better than oue» وليس أدل على ذلك من نجاح أنظمة الحكم الديمقراطية الشعبية وفشل أنظمة الحكم الفردية الاستبدادية .

والدولة ورئاستها مصلحة عامة وحق شعبي عمومي لجميع المواطنين . والدولة شبكة اجتماعية عامة والمواطنون أعضاء مساهمون فيها كل على قدر طاقته وقدرته .

لذلك كان لكل مواطن الحق كل الحق في أن يشارك بلسانه ويده في وجودها وبنائها وتوجيه مسيرتها وأن يمنح فرصة الوصول إلى رئاسة الدولة إذا كان أهلا لذلك، وواجب عليه أن يفعل ذلك وإلا عد عضواً عاطلا مقصراً . وأى فرد ينفرد بالحكم والسلطة ويستبد بالأمر يعتبر محتكراً للحكم والسلطة ومغتصباً لحقوق أبناء وطنه ومتسلطاً على جماعته ، ويجب كسر احتكاره وتحطيمه كما يجب كسر الاحتكار في التجارة والبيع والشراء . والحكم الفردي الاستبدادي التسلطي يجني على نفسه وعلى الشعب الذي يغلبه على أمره ويتسلط عليه ، شأنه في ذلك شأن عمارة تقوم على عمود واحد لا تلبث أن ينكسر العمود وتنهار العمارة . أما الدولة التي تقوم على حكم ديمقراطي شعبي فكعمارة تعتمد على عدة أعمدة تبقى قائمة شامخة ما دامت صالحة وأعمدتها سليمة .

والحكم الديمقراطي الشعبي قوى متين والحكم الفردي

الاستبدادى ضعيف ركيك، وإذا حدثت مواجهة بينهما تغلب الحكم الشعبى على الحكم الفردى الاستبدادى كما تغلب الجماعة على الفرد لأن الأيدى التى تعمل وتبنى فى النظام الديمقراطى أكثر من الأيدى التى تعمل فى النظام الفردى .

وفى النظام الديمقراطى الشعبى يكون المواطن شريكا فعالا لأنه يساهم فى بنائه وإقامته وتراه محفوظ الحق والكرامة فى ظل القانون والدستور . لذلك يؤمن به ويرتبط به ويدعمه وذلك سر قوته ونجاحه . أما النظام الفردى الاستبدادى فلا يسير على قانون ولا دستور، إنما تسيره المصالح الفردية والأنانية والأهواء الشخصية ويستعبد فيه المواطن ويستذل ويضيع حقه وتداس كرامته . لذلك تنقطع الصلة وتنعدم الثقة بينه وبين الشعب ، ويصير بمعزل عن المواطن وتراه فى طريق والشعب فى طريق آخر . وذلك يجعله ضعيفاً عليلا سرعان ما يسقط وينهار أمام النظام الديمقراطى الشعبى الذى يباركه الشعب ويحمله فى قلبه ويده . وليس أدل على قوة النظام الديمقراطى وضعف النظام الاستبدادى من سقوط دول المحور ذات الأنظمة الفردية الاستبدادية أمام دول الحلفاء ذات الأنظمة الديمقراطية فى الحرب العالمية الثانية .

والديمقراطية الحقة يأخذها الشعب ولا يعطاها ويصنعها

بوعيه وشجاعته وتضحياته وتعاونه واتحاده وحبه للحياة الحرة الكريمة ، ويمليها على قادته وحكامه ويفرضها عليهم فرضاً ولا يمنحها الحاكم للشعب ، لأن كل فرد أنانى ميال بطبعه وطبيعته إلى السيطرة على الغير والاستبداد بالأمر والحكم والاستئثار بالسلطة على غيره . فإذا ما وجد الحاكم شعباً يحاسبه على أخطائه ويقوم اعوجاجه ويوقفه عند حده التزم طريق الشعب والمصلحة العامة . وإذا لمس ضعفاً فى الشعب ولم يجد من يعيده إلى طريق الحق والصواب استبد بالأمر والسلطة وتسلط وتجبر. فالإنسان بطبعه أنانى طماع محب للسيطرة والاستبداد ، كما قال تعالى فى كتابه العظيم القرآن الكريم «وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء» و « إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى » .

وقال المتنبي :

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفـــة فلعلة لا يظلم

وقال خليل مطران :

كل قـوم خالقـو نيرونهم قيصر قيل له أم قيل كسرى

والحاكم الذى يستبد بالحكم وينفرد بالسلطة إنما هو طاغية مستعمر يقيد الشعب ويسجنه ويسلبه حقه الطبيعى المشروع فى الحياة الحرة المستقلة مع أنه لا عزة ولا قوة ولا إنتاج ولا إبداع

ولا تقدم إلا فى ظل الحياة الحرة الكريمة . والحياة بلا حرية ولا ديمقراطية تعنى العبودية والذل والسجن والقيود . لذا كانت الحياة الحرة الكريمة أعز ما يملك الفرد والشعب، فالشعب المحروم من حقه الطبيعى فى الحرية سجين مكبل ! والحاكم الذى يسلب الشعب حياته الحرة الديمقراطية يعتبر مستعمراً سجانا للشعب سواء كان غريباً دخيلا أو قريباً . والمستعمر القريب أشد وطأة وأثقل ظلا على الشعب من المستعمر الغريب . ومن حق الشعب وواجبه أن يثور على الحاكم الذى يستبد بالأمر والسلطة ويحتكر رئاسة الدولة لنفسه ولأسرته لينتزع منه حقه الطبيعى المشروع فى المشاركة فى رئاسة الدولة والحكم، والشعب الواعى الحر القوى يستطيع أن يقوم اعوجاج قادته وحكامه ويستطيع أن يستغنى عنهم ويستبدل بهم من هو أصلح منهم وأكفأ . ويقدر كذلك على أن يقيم نظام الحكم الذى يناسبه ويرتضيه لنفسه . والحاكم المستبد المنحرف عن طريق الشعب أنانى أحمق يضر نفسه ويؤذى مجتمعه وبالتالى يحمل الناس على إسقاطه .

هذا والحرية لا ينالها ولا يمارسها إلا الأقوياء الأعزاء الذين هم أهلها الأكفاء أما الضعفاء المساكين فلا يستطيعون أن يعيشوا أحراراً أعزاء وليسوا أهلا أكفاء للحياة الحرة المستقلة الكريمة. وهذا هو حال الدنيا وواقع الحياة فى كل زمان ومكان .

والحرية الإنسانية لها أشكال وألوان، منها حرية القول وحرية العمل وحرية الدين وحرية العيش والحرية السياسية والحرية الاجتماعية وحرية الزمان والمكان وحرية تكافؤ الفرص واختيار نظام الحكم الذى يريده الشعب، وحرية الوصول إلى رئاسة الدولة ومواقع القيادة والمسئولية . فالحرية الحقيقية والديمقراطية الحقة أن تكون رئاسة الدولة حقاً وطنياً عاماً لكل فرد كفء ، وأن يكون طريق الوصول إليها مفتوحاً لجميع المواطنين لا أن تكون احتكارا لفئة أو أسرة معينة .

على أن حرية الفرد تكون نافعة للفرد والمجتمع إذا كانت مقيدة محدودة ، وتكون ضارة إذا كانت لا محدودة وغير مقيدة . وتحد حرية الفرد فى المجتمع بالأخلاق والآداب والمصلحة العامة وإلحاق الضرر بالغير . فالحرية اللامحدودة غير المقيدة فوضى وانفلات وانحلال وحياة حيوانية . والحرية المحدودة المقيدة نظام وانضباط وحياة إنسانية . وفى الحرية المطلقة اللامحدودة يأتى الإنسان بما ينفع ويحسن وبما يضر ويقبح من الأقوال والأفعال لأن الإنسان تحدثه نفسه بالخير والشر وبالحسن والقبيح. لذلك لا يحل للمرء أن يفعل كل ما تحدثه به نفسه وكل ما يخطر على باله ، وذلك يعنى أن حرية الفرد فى المجتمع محدودة مقيدة

كحرية الراكب فى السفينة والطائرة أو كحرية الساكن فى شقة بعمارة أو كحرية السائق فى قيادة السيارة .

والحرية المطلقة اللامحدودة تعنى الخروج على القانون والنظام وإباحة السرقة والاعتداء والتخريب وفعل الشر، أما الحرية المقيدة المحدودة فتعنى ضبط النفس واللسان واليد والوقوف عند حد الخير والتقيد بالنظام والأخلاق والآداب ، وذلك من سمات المجتمع الإنسانى المهذب ومن ثمرات الحضارة الإنسانية الراقيةودليل على الوعى والنضج والتقدم، والله سبحانه وتعالى أعطى الإنسان حرية محدودة مقيدة بقيود الأخلاق والآداب والفضيلة وحرم عليه الحرية المطلقة اللامحدودة، ويدل على ذلك أمره الإنسان باتباع سبيل الحق والخير والفضيلة ، ونهيه إياه عن اقتراف الشرور والرذائل والآثام منزنا وسرقة وظلم وقتل بغير حقوغيرذلك .

على أن الله سبحانه وتعالى لم يحرم الناس من حرية الضمير والتفكير والاعتقاد والتدين ، ونعرف ذلك من قوله جل شأنه فى كتابه العظيم القرآن الكريم «فمن شاء فليؤمن ومنشاء فليكفر» و« لا اكراه فىالدين قد تبين الرشد من الغى » .. «فذكر إنما أنت مذكر . لست عليهم بمسيطر » .

والحكمة من إعطاء الإنسان حرية محدودة فى لسانه ويده

هى حمايته من خطر الحرية المطلقة اللامحدودة ؛ لأن عدم انضباط اللسان واليد فيه ضرر وشر للفرد والمجتمع، أما الحرية فى الضمير والتفكير والنية والاعتقاد فضررها لا يتعدى صاحبها .

وإذا كان الله عز وجل أعطى الإنسان حرية الضمير والدين والمعتقد وحرية اللسان واليد فى نطاق الأخلاق والآداب والفضيلة فكيف يقوم الإنسان بسلبهامن أخيه الإنسان، فالشخص العاقل الذى يعرف الله ويتقيه يحترم حرية غيره كما يحترم حرية نفسه وينهج نهج الشورى والديمقراطية الذى أمر الله باتباعه ولا يستبد بالأمر ولا يحتكر السلطة والحكم لنفسه وأهله إذا كان ذا سلطة .

ومن الحماقة وقصر النظر خنق الأصوات وتكميم الأفواه وربط الألسنة ، فالقول المعقول الطيب يبقى ويثمر ثمراً طيباً والقول الفارغ الباطل يذهب بالرياح وقد يثمر ثمرا خبيثاً والصوت الجميل يجد آذاناً صاغية والصوت القبيح لا يستمع له أحد ، وما ينفع الناس من قول وعمل يمكث فى الأرض الطيبة وما لا ينفع يطير هباء ويتبخر فى الجو .

لن يتحد العرب ولن يعزوا
إلا فى ظل الاسلام الحنيف

من يدرس تاريخ العرب منذ العصر الجاهلى حتى اليوم يعرف أن العرب ما تعاونوا وما اتحدوا وما تقدموا وما عاشوا أحراراً كراماً أسياداً فى ديارهم، وما صاروا خير أمة أخرجت للناس إلا فى ظل الإسلام الصحيح .

ويعرف كذلك أنهم ما تفرقوا أو ما ضعفوا وما تخلفوا ، وما أصيبوا بالغزو الأجنبى لديارهم والاحتلال الاستعمارى لبلادهم قديماً وحديثاً إلا وهم مبتعدون عن الإسلام الحنيف ، وذلك جزاء وفاقاً لهم على تحللهم من الإسلام الحنيف الذى هو فى الحقيقة والواقع جامع قلوبهم وأرواحهم وأبدانهم وموحد صفوفهم كما قال الله تعالى : «إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا » و« ألف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم » .

وعلمهم الأخلاق السماوية والآداب العلوية كما قال رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم : إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » وهو منار طريقهم وشمس وجودهم ومصدر حياتهم الحرة الكريمة

ومنبع قوتهم وعزتهم كما قال تعالى: «ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين» وقال رسوله الكريم محمد (صلى الله عليه وسلم): «لا يكون المؤمن جبانا» وقال: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبداً... كتاب الله وسنة رسوله».

فالعرب قبل الإسلام كان يخيم عليهم ظلام الجاهلية والأمية، ويسودهم عادات وتقاليد باطلة وأخلاق سيئة. وكان معظمهم يعبد الأصنام والكواكب والنجوم والشجر وبعض الحيوانات. كما كان غول التمزق والانقسام والخصام يفترسهم. ولم تكن لهم دولة عربية تجمعهم وترعاهم. لذلك استعمرهم الفرس والروم والأحباش واستعبدوهم وسخروهم لخدمتهم وتحقيق مصالحهم.

وفي ظل الإســــلام الحنيف صاروا مؤمنين بالله وحده لا شريك له، وأصبحوا بنعمته وفضله إخوانا متحابين متراحمين متعاونين متحدين في السراء والضراء. فتحرروا من استعمار الفرس والروم والأحباش، بل إنهم حطموا مستعمريهم بالأمس وسادوهم وأقاموا أعظم دولة عربية إسلامية وأرقى حضارة إنسانية في في العصور الوسطى.

ولما ابتعدوا عن الإسلام الصحيح بانسياقهم في تيار الأثرة والأنانية والأهواء والشهوات تفرقوا إلى دويلات وشعوب

وأوطان . فأضاعوا دولتهم العربية الإسلامية القوية وحضارتهم الإسلامية الزاهرة . وتعرضوا للغزو الخارجى ووقعوا تحت نير الاحتلال الأجنبي فى أيام الصليبيين والمغول والاستعمار الأوربى الحديث المصحوب بالاستيطان الصهيونى . وافتقدوا أجزاء غالية من وطنهم العربى الكبير .

والعرب اليوم يعانون من داء التخلف والجهل والضعف والتفرق ، ويقاسون من خطر غزو الاستعمار الغربى والاستيطان الصهيونى لهم فى عقر دارهم ، واغتصاب أجزاء عزيزة من بلادهم وديارهم . وذلك لابتعادهم عن الإسلام الحنيف .

لذلك بذلوا وما زالوا يبذلون محاولات كثيرة منذ مطلع هذا القرن لإقامة وحدة عربية شاملة ، فلم يفلحوا حتى الآن فى توحيد قطرين عربيين تحت راية القومية العربية وحدها وبالروح العربية الخالصة ، بل إنهم لم يستطيعوا حتى إقامة حلف عربى حقيقى فعال فى مواجهة التحالف القائم بين الاستعمار الأمريكى والصهيونية العالمية وهو يحتل فلسطين والجولان وسيناء ويجثم على صدورهم وينذر باحتلال أراض عربية أخرى ، مع العلم بأن رسول الله محمدا (صلى الله عليه وسلم) استطاع فى ثلاث وعشرين سنة أن يوحد العرب دينيا وعقائدياً وسياسياً واقتصادياً واجتماعياً تحت راية الإسلام الحنيف الخفاقة .

وذلك لأنهم ضلوا الطريق السوى الوحيد الذى يمكن به وحده اليوم أن يتعاونوا ويتحدوا قولا وعملا تحت راية دولة واحدة ، ألا وهو طريق الإسلام الحنيف كما فعلوا ذلك فى الماضى .

فبالإسلام خرج العرب على يد رسول الله محمد (صلى الله عليه وسلم) من ظلمات العصر الجاهلى إلى نور الحياة الحرة الكريمة الراقية ، وتخلصوا من استعمار الفرس والروم والأحباش ، وتعاونوا واتحدوا وأقاموا الدولة العربية الإسلامية العظمى التى امتدت إلى حدود الصين شرقاً وجنوب فرنسا غرباً ، وشادوا الحضارة الإسلامية .. حضارة العصور الوسطى بلا منازع .

وبالإسلام الحنيف تآخى المهاجرون والأنصار فى المدينة المنورة وساروا صفا واحداً كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا لفتح مكة وتحريرها من كفار قريش .

وبالروح الإسلامية الصادقة انتصرت فئة قليلة من المسلمين المؤمنين فى معركة بدر على فئة كثيرة من كفار مكة ، وانتصر خمسون أو ستون ألفا من جنود المسلمين فى معركة اليرموك بقيادة خالد بن الوليد على ما يربو على مائتى ألف من جنود الروم ، وألحقت الدولة العربية الإسلامية الصغيرة الناشئة الهزيمة بإمبراطوريتى الفرس والروم .

وبغياب الروح الإسلامية المخلصة غزا الصليبيون القدس وسائر بلاد الشام واحتلوها ، وبعودة الروح الإسلاميه إلى بلاد الشام ومصر والعراق آنذاك على يد عماد الدين زنكى ونور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبى توحدت مصر والشام ، وانهارت الإمارات الصليبية فى القدس وسائر بلاد الشام .

وتحت راية الإسلام الحنيف وبروحه الوثابة الصادقة هزمت مصر بقيادة المماليك المغول التتار فى معركة عين جالوت. وبالإسلام ذاب المغول فيما بعد فى المجتمع الإسلامى .

وبخروج العرب الفعلى من الإسلام الصحيح أخرجهم الإسبان من الأندلس عام ١٤٩٢ م . وذلك يعنى أن عجز العرب اليوم عن توحيد أقطارهم وشعوبهم فى دولة عربية واحدة ذات شخصية عربية حرة مستقلة سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وفكرياً وثقافيا ، وتحرير الأراضى العربية المغتصبة ، يرجع إلى تحللهم من الإسلام الصحيح قولا وعملا . ويدل على ذلك أننا منذ مطلع القرن الحالى ونحن نجاهد فى سبيل إقامة دولة عربية متحدة ، فأسسنا جامعة الدول العربية سنة ١٩٤٥ لهذا الهدف القومى السامى ، فلم نفلح حتى الآن فى تحقيقه ، لأن جامعة الدول العربية ماتزال حتى اليوم جثة بلا روح وأشلاء ممزقة كل عضو فيها يغنى على ليلاه ويعزف على وتره الإقليمى الخاص .

ويدل على فشل الرابطة القومية وحدها فى توحيد العرب انهيار الوحدة المصرية السورية التى قامت سنة ١٩٥٨ عام ١٩٦١ لأنها قامت على أساس قومى محض ولم ينفخ فيها من روح الإسلام الحنيف .

ومثلها انفساخ ميثاق الوحدة الثلاثية بين مصر وسوريا والعراق فى نيسان ١٩٦٤ م قبل أن يجف مداده ، ومثله إخفاق الميثاق الرباعى الذى وقع فى طرابلس الغرب سنة ١٩٧١ م . لإقامة دولة عربية اتحادية تضم مصر والسودان وسوريا وليبيا .

ولا ننسى الاتفاق الذى جرى بين ليبيا وتونس عام ١٩٧٤ لتوحيد القطرين ، وقد كتب فى الليل ومحى فى النهار .

واضح من ذلك فشل حزب البعث العربى الاشتراكى الذى الذى يتبنى الدعوة إلى الوحدة العربية الشاملة فى توحيد سوريا والعراق مع أن القطرين العربيين الشقيقين تحت حكمه وسيطرته وذلك لروح الشقاق والخصام التى تسود أعضاءه وأفراده .

ونحن فى محاولاتنا لتوحيد أقطار الوطن العربى الكبير تحت لواء الرابطة القومية المحضة نقلد الغرب فى بناء دولة على أساس قومى وطنى خالص تقليداً أعمى كما قلدناه فى فصل الدين عن السياسة مع أن الإسلام دنيا ودين ويتناول جميع نواحى الحياة ، فقد

غاب عن بالنا أن ما يناسب الغرب من نظم وسنن وقوانين قد لا يناسبنا ، وأن ما يناسبنا قد لا يناسبه لاختلافنا عنه فى الطباع والأخلاق والدين والعادات والتقاليد والتراث والحضارة . فماضى العرب يشهد بأن العرب ما اجتمعوا تحت سقف دولة عربية واحدة إلا فى ظل الإسلام الحنيف . ويؤيد ذلك فشلهم حتى الآن طوال قرن من الزمن تقريبا فى توحيد قطرين عربيين تحت راية القومية العربية وحدها .

مع العلم بأن رسول الله محمدا (عليه الصلاة والسلام) استطاع إخراج العرب من ظلمات العصر الجاهلى إلى نور الإيمان والعلم والإسلام ومن استعمار الفرس والروم والأحباش إلى رحاب الحرية والاستقلال والوحدة فى عشرين سنة .

وأرى أن المسلمين العرب الذين يتحلون بالروح الإسلامية الصادقة يبرأون من التعصبات الإقليمية وأكثر تآلفاً وتعاونا وأشد حرصاً على وحدة الأمة العربية ، وأكثر استجابة لنداء التضحية والفداء والجهاد بالمال والنفس من العرب البعيدين عن الإسلام قلباً وروحاً .

* * *

يفهم مما تقدم أن الله سبحانه وتعالى قد كتب على العرب ألا يتحدوا وألا يعزوا وألا يسودوا إلا فى ظل الإسلام الحنيف. فإذا تمسكوا بالإسلام قولا وعملا، ظاهراً وباطناً تعاونوا واتحدوا وعزوا وسادوا وصاروا خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . وصاروا أقوياء قادرين على تحرير أراضيهم العربية المغتصبة، وعاشوا أعزاء أحراراً فى ديارهم وتبوأوا مكانة دولية كما يدل على ذلك تاريخهم وحاضرهم .

وفى ظل الإسلام الحنيف يصير العرب إخوة متحابين متراحمين متحدين فى جميع الظروف والأحوال ، ويصير المجتمع العربى كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، وتصير الأمة العربية كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى .

والتمسك بالإسلام يعنى العمل بأركان الإسلام وفرائضه من شهادتين وصلاة وصوم وزكاة وحج . ويعنى الإيمان بالله قولا وعملا ، وطاعته والامتثال لأوامره ونواهيه .

ويعنى كذلك التحلى بأخلاق الإسلام السامية وآدابه العالية من محبة وأخوة وتعاون واتحاد وصدق وأمانة وحق وعدل وشجاعة وإخاء وحرية ومساواة وتراحم وتضحية وإيثار وجد واجتهاد وعزة وقوة رحيمة وما إلى ذلك ، والتمسك بالإسلام يعنى الجهاد بالمال والنفس فى سبيل الله والوطن والأمة .

والإسلام الصحيح يطهر المجتمع من المفاسـد والرذائل التى تجعله مريضا منحلا ، فيصير بالطهارة والنظافة سليما معافى قويا .

والإسلام يخنق صوت الأثرة والأنانية، ويطلق نداء التضحية والإيثار ونكران الذات . وتقديم المصلحة العـامة على المصلحة الخاصـة ، وواضح أن الأنانية والنزعة الفردية مما يفرق الأمة العربية ويعرقل قيام الوحدة العربية الشاملة كما أن الإسلام يقضى على التعصبات الإقليمية والاتجاهات الانفصالية ، ويدفن بقايا القوميات الأخرى غير العربية من فينيقيـة وفرعونية وبربرية وكردية ، ويهـدم الحدود السياسية المصطنعة التى أقامها الاستعمار وأعوانه بين أقطار العـالم العربى كما أنه يأمر بأن تكون للأمة العربية الواحدة دولة عربية واحـدة قوية لا دويلات صغيرة عديدة ولا أوطان متعددة .

وفى ظل الإسلام يقوم نظام الحـكم على سيادة القانون وحرية الرأى والشورى والديمقراطية وتكافؤ الفرص والعدالة الاجتماعية ووضع الرجل المناسب فى المـكان المناسب ، وفى ذلك قال الله تعـالى فى كتابه العظيم القرآن الـكريم : « وشاورهم فى الأمر » « وأمرهم شورى بينهم » .

وقال رسول الله محمد (صلى الله عليه وسلم) : إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة .

قيل : يا رسول الله وما تضييع الأمانة ؟

قال : أن يوسد الأمر إلى غير أهله .

وقال كذلك عليه الصلاة والسلام : الناس سواسية كأسنان المشط .

والإسلام الحنيف يربط المرء بالله ويملأ قلبه إيماناً به ومخافة منه ، ويبعث فيه إنسانيته وضميره ، ويجعله يتخلق بأخلاق الله تعالى . وبتقوى الله والأخلاق الالهية يسلك الانسان طريق الحق والعدل والبر والانسانية ، ويجتنب طريق الباطل والظلم والشر والحيوانية . أما القوانين الوضعية فلم تفلح حتى الآن فى تحقيق مايصبوا إليه البشر من عدالة وأمن وسلام وعلاقات إنسانية كما يدل على ذلك واقع الحياة البشرية قديما وحديثا ، لأن القائمين على تطبيقها وتنفيذها يفتقرون إلى تقوى الله ومعانى الحق والعدل والمبادىء الانسانية ، ولا تثمر القوانين العادلة ما لم يقم على تنفيذها ناس ذوو عقول مستنيرة وأخلاق كريمة ، فالقاضى أولا والقانون ثانياً . وكم من قوانين عادلة معطلة وقوانين جائرة مطبقة .

وفى ظل الإسلام الحنيف يكون التعادل بين القيم الروحية والمادية لأنه بطغيان المادة على الروح يكون الجشع والاستغلال والاحتكار والانتهازية وارتكاب المظالم والمفاسد والجرائم والشرور ، والإسلام يحرم ذلك كله ويحاربه . فقد قال تعالى :

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » .

والإسلام الحنيف يصنع الإنسان المسلم ويربيه تربية وطنية صادقة ويوجهه وجهة إنسانية خيرة ويستثمر ما فيه من طاقات وقوى روحية ومادية لصالحه وصالح أهله وخير مجتمعه الوطنى ومجتمعه الإنسانى الأكبر . وإذا ما ربى الانسان تربية صالحة واشرب معانى الحق والعدل والانسانية وتزود بتقوى الله استخدم قدراته وإمكاناته فى الخير والحق والعدل لافى الشر والباطل والظلم وسخر قوى العلم وطاقاته الهائلة العجيبة فى مجالات البناء والعمران والسلم لا فى ميادين الهدم والخراب والحرب ، فقد قال رسول الله محمد (صلى الله عليه وسلم) « خير الناس أنفعهم للناس » .

والاسلام الصحيح الحق يعلم مكارم الأخلاق والآداب وعلى رأسها التضحية والإيثار ووضع المصلحة العامة فوق المصلحة الخاصة ، والتعاون والاتحاد . وقد وصف الله المؤمنين الصادقين بقوله جل شأنه : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » وأمرهم بالتعاون والاتحاد فقال جل شأنه : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » «واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » .

ولقد كان وما زال للعائق الأخلاقى والنزعة الفردية الأنانية اليد الطولى فى إحداث الفرقة والانقسام فى صفوف العرب وفى تقسيم

العالم العربى إلى شعوب وأوطان ودويلات . وما يؤيد ذلك هو أن جميع عوامل الاتحاد الطبيعية من لغة وجنس ودين وتاريخ وثقافة ومصلحة وبيئة جغرافية متوافرة فى كل العالم العربى أكثر من توافرها فى أى مكان آخر فى العالم . ومع ذلك لم يقم حتى الآن اتحاد بين أقطاره ولا بين بعض أجزائه . فالهند مثلا تقوم فيها دولة هندية واحدة مع وجود أكثر من لغة قومية واحدة وعدة مذاهب وأديان . والولايات المتحدة الأمريكية شعبها خليط من الشعوب الأوربية ومثلها كندا واستراليا والاتحاد السوفيتى .

وأوضح من ذلك ما نسمعه ونراه من دعوات وحدوية وشعارات اتحادية يطلقها المسئولون العرب . ولكنها دعوات وشعارات لا تتجاوز حد الكلام والثرثرة ، وذلك يدل على أنه يقصد بها الاستهلاك المحلى وتخدير الأعصاب والتملق والنفاق ، وليس ذلك من الأخلاق فى شىء ، ويمقت الله تعالى هذا النوع من الناس بقوله : « يأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون . كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » .

والإسلام الحنيف يعلم الترتيب والنظام والانضباط الذى يتمثل فى فرائضه ومناسكه من صلاة وصوم وزكاة وحج ، وفى تكاليفه وواجباته وحركاته . والبركة والنجاح حليف النظام

والانضباط والفشل والضياع قرين الفوضى والانفلات .

وذلك يؤكد لنا أنه لن يقدر للوحدة العربية الشاملة أن تقوم وتعيش إلا بأيد عربية إسلامية وبروح إسلامية صادقة ، فتكون عربية الوجه واللسان واليد ، إسلامية القلب والروح والخلق .

ويلاحظ أنى خصصت العالم العربى بالحديث دون سائر العالم الإسلامى لأن العرب هم عماد الاسلام ومحوره ومركز الثقل فى دنيا الاسلام . ولا يمكن اجتماع المسلمين جميعاً تحت لواء دولة إسلامية واحدة ، لافتقارهم إلى جميع عوامل الاتحاد اللازمة ، فالدين وحده لا يكفى لاقامة دولة واحدة من شعوب تختلف فى اللغة والقومية والتاريخ والبيئة الجغرافية . أما العرب فيمكن جمعهم وتوحيدهم تحت ظل دولة عربية إسلامية واحدة لتوفر جميع عناصر الوحدة الطبيعية من لغة وقومية ودين وثقافة وتاريخ وبيئة جغرافية ومصلحة . فالواقع يقر أنه يمكن أن يقوم تعاون وتحالف بين العالم العربى والدول الاسلامية الأخرى .

من الحكمة أن يذوق المرء طعم الخسارة

الغرور يعني انخداع المرء بنفسه انخداعا يعميه عن حقيقة نفسه وواقع غيره على إثر نعمة هبطت عليه أو نجاح أحرزه أو قوة نالها ونحو ذلك .

إذا أصاب فقير مرة ظفرا فإنه يعتريه الطيش والبطر

وبذلك يكون الغرور توهما وانتفاخا معنويا ومرضا نفسيا وغشاوة على البصيرة . وهي سكرة وخمرة وبطر . وفي سكرة الغرور ونشوته يشعر المغرور بالصلف والغطرسة . وينظر إلى غيره من عل . ويستخف بخصمه ولا يستعد له كما ينبغي . وعندما تذهب السكرة وتأتي الفكرة وتتبخر نشوة الغرور ويفش انتفاخه يسقط المغرور على زمكه فيتحطم ويتكسر ، وينكمش ويصغر ويذل بقدر ما كان منتفخا مزهوا مختالا في نشوة البطر والغرور. ويغشى الغرور أصحاب العقول الصغيرة والأحلام الطائشة ، ولا يصيب أولي الحكمة والألباب .

وهكذا ما أصاب الغرور شخصاً إلا هوى به وحطمه وأذله وأهلكه .

فالمسلمون في موقعة حنين أعجبتهم كثرتهم فاغتروا واستهانوا

بعدوهم خسروا وانتكسوا فى بداية المعركة . فكانت تلك النكسة درساً بليغاً نافذاً لهم تعلموا منه ألا يغتروا بكثرة عددهم ولا بتتابع انتصاراتهم ، وألا يستخفوا بخصمهم فيعدوا له القـــوة الكافية ويستعدوا للقائه كأحسن ما يكون الاستعداد .

* * *

والعرب قبل نكسة ٥ حزيران ١٩٦٧ كان عندهم شىء من الاستهانة بقوة إسرائيل وخطرها على وجودهم . فلم يعدوا لهـا القوة اللازمة الكافية لقهرها وسحقها من تخطيط علمى وتنسيق حربى وتعاون واتحاد ونحو ذلك، فلذلك خسروا تلك المعركة مع عدوهم الصهيونى .

وقد أيقظتهم تلك النكسة على واقعهم وواقع عدوهم . ولقنتهم درساً بليغاً وعلمتهم أن يستعدوا له متعاونين متحدين ، ومزودين بالتخطيط والتنسيق ومسلحين بالسلاح الحديث المتطور ، وقد آتى ذلك الدرس أكله فى معركة رمضان ١٣٩٣ هـ الموافق ٦ أكتوبر ١٩٧٣ م . فقد ألحقوا بالعدو خسائر مادية وبشرية فادحة وتقوى موقفهم العسكرى فتغير تقدير العـدو لهم وموقفه منهم . وتبدلت نظرة العالم إليهم . وهكذا كلما احترم الإنسان

نفسه احترمه الناس ، الصديق منهم والعدو والقريب والبعيد . وفى هذا يقول شاعر حكيم .

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها

هوانا بها كانت على الناس أهونا

ويحترم المرء نفسه حين يخلع ثوب الضعف والذل ويرتدى لباس القوة والعزة . ويسحق العدوان الذى يقع عليه ويسترد حقوقه المغتصبة ، ويعيش حراً كريماً فى داره وأرضه .

وأعود إلى القول بأن الانتصار المستمر الذى لا يتخلله فشل أحياناً يصيب صاحبه بسكرة الغرور والبطر . ولذلك كان من الحكمة والخير أن يذوق كل بطل وغير بطل طعم الفشل والهزيمة . فمن ذاق مرارة الهزيمة وحلاوة النصر كان أكثر حرصاً على النصر ممن ذاق حلاوة النجاح وحدها . فالتاجر الذى يربح ويخسر يكون أكثر مهارة فى ميدان التجارة وأشد حرصاً على المكسب من تاجر لم يجرب الخسارة . والتلميذ الذى جرب النجاح والفشل تراه أكثر اهتماماً بالاجتهاد والنجاح من تلميذ لم يعرف إلا النجاح . والغنى الذى اغتنى بعد فقر وبؤس أشد ضنا بالمال وأكثر حفاظاً عليه من شخص لم ير إلا الثراء والرخاء ، وترى المرء الذى ابتلى بالمرض أكثر اعتناء بصحته وعافيته من الشخص الذى يتمتع كل أيامه بنعمة الصحة والعافية . ومن خبر الحياة بخيرها وحلوها

وبشرها ومرها تراه أكثر دراية ومعرفة بأمور الحياة ممن لم يعرف
إلا خيرها وحلوها .

ومما يجدر ذكره فى هذا المقام أن بطولة الأبطال وقدراتهم
أكثر ما تتجلى وتبرز فى ميدان الصمود والثبات فى وجه
الأزمات والنكسات ، وتحويل الخسائر والهزائم إلى مكاسب
وانتصارات .

الاهتمام بأمر الأمة والوطن فرض دينى

وواجب وطنى

الفرد جزء من المجتمع ، والمصلحة الخاصة فرع من المصلحة العامة . وواضح أن الجزء مرتبط بالكل والفرع يستمد وجوده من الأصل . وذلك يعنى أنه بضياع الكل يضيع الجزء وبذهاب الأصل يذهب الفرع . ويعنى كذلك أن ما يصيب الجماعة من خير أو شر يصيب الفرد . وما ينال المصلحة العامة من سلامة وازدهار أو خطر وانتكاس ينال المصلحة الخاصة وما يمس الوطن من نفع أو ضرر يمس المواطن . وليس أدل على ذلك من ضياع مصالح عرب فلسطين من دور وأراض وأموال فى بلدهم فلسطين بضياع فلسطين .

والمواطن الواعى المستنير يعى ذلك جيداً ويعرف أنه من الخير له ومن مصلحته الشخصية أن يساهم فى خدمة أمته وبناء وطنه. وأن يحافظ على المصلحة العامة لأن حياة المواطن من حياة وطنه، والمصلحة الخاصة مرتبطة بالمصلحة العامة ارتباط الفرع بالشجرة وخدمة الأمة وبناء الوطن وحفظ المصلحة العامة يحتاج إلى تعاون أفراد الشعب وتضافر جهودهم وتآزر عقولهم وسواعدهم إذ لا يستطيع

الفرد وحده أن ينهض بعبء بناء الوطن وخدمة المصلحة العامة . فالصالح العام يتطلب جهداً عاماً والصالح الخاص يستدعى جهداً خاصاً .

والدولة شركة اجتماعية عامة والأفراد أعضاء مساهمون فيها وعاملون فيها كل على قدر جهده وطاقته وإمكاناته . والمجتمع أسرة كبيرة والمواطنون أفرادها وأعضاؤها .

ولا شك فى أن أية شركة تكبر وتقوى وتنجح بمقدار ما يبذله أعضاؤها المساهمون فيها من خدمة صادقة وعناية كافية ورعاية لازمة ، وأن صلاح الأسرة مستمد من صلاح أفرادها . وذلك يتطلب من المواطن الاهتمام بأمر أمته وبلاده والرغبة فى خدمتها والنهوض بها كما يهتم العضو المساهم فى شركة بنجاح شركته . وكما يحرص الفرد الصالح على صلاح أسرته الخاصة . فلا يعقل أن يخدم الوطن مواطن يهمل شؤون أمته ولا يبالى بما يجرى فى وطنه من خير أو شر . أما المواطن الذى يهتم بأمر مجتمعه ويتابع مسيرة أمته ويرصد درجات تحركها ويقيس المسافة التى قطعتها على طريق النهضة والتقدم فهو مواطن صالح يساهم فى بناء وطنه وخدمة أمته .

ولا يكون مواطناً عاملا صالحا من لا يهتم بأمر وطنه ولا يكترث بما يدور فى بلاده من خير أو شر ولا يدرى بما يحيط بها من ظروف وأوضاع ، ولا يبالى قامت أمته وتقدمت أم قعدت

وتأخرت ؟ وفى هذا المعنى قال رسول الله محمد (صلى الله عليه وسلم): « من لا يهتم بأمر المسلمين فليس منهم » وقوله عليه الصلاة والسلام يعنى أن الاهتمام بأمر الوطن والأمة فرض دينى إسلامى كما هو واجب وطنى قومى لأنه بضياع الدين يضيع الوطن . إذ لا دين بلا وطن ولا وطن بلا دين : ونعرف ذلك من خطر اليهود الذى يتهدد المسجد الأقصى المبارك فى القدس . فلو حافظنا على وطننا فلسطين لما ضاع المسجد الأقصى ولو حافظنا على ديننا الإسلامى الحنيف وعملنا به لما ضاعت فلسطين. وهل يمكن إقامة شعائر الدين وبناء مساجد فى الجو والبحر ؟ فالمواطن الواعى الصالح يهتم بأمر بلاده ويساهم فى فعل الخير الذى تناله كما يساهم فى دفع الشر الذى الذى يصيبها ، ويدرك أن سلامته الشخصية مرتهنة بسلامة وطنه وأن مصلحته الخاصة مرتبطة بمصلحة أمته . وأنه يستمد عزته وقوته من عزة أمته وقوة بلاده . ويرى أنه يكون قوياً غنياً وهو يقف فى صف واحد مع بنى قومه ووطنه ودينه ويضع يده فى أيديهم ويصير ضعيفاً فقيراً إذا وقف وحده وابتعد عن جماعته وأمته .

ويترتب على الاهتمام بأمر الأمة والوطن مراقبة المسئولين العاملين فى ميدان الخدمة الوطنية والمصلحة العامة ، ومحاسبتهم على أعمالهم وتصرفاتهم ، فيثاب المجتهد المصيب ويشكر المجتهد المخطىء

ويبين له خطؤه . أما المقصر المنحرف فيعاقب على تقصيره وانحرافه . والشعب الحر القوى الواعى يستطيع مراقبة قادته والمسئولين فيه ومحاسبتهم وتقويم اعوجاجهم ويستطيع كذلك الاستغناء عنهم واستبدالهم بغيرهم إذا اقتضى الأمر ذلك .

ووسائل وأجهزة الإعلام من صحف ومجلات وإذاعة وتلفزيون تحمل للمواطن أخبار بلاده والبلاد الأخرى . وتنقل له أحداثها وشئونها المختلفة وتطلعه على أوضاعها وأحوالها . ولذلك يهتم المواطن الواعى المستنير بالصحف والمجلات ويطالعها . ويستمع إلى النشرات الإخبارية والبرامج المتنوعة التى يبثها المذياع والتلفزيون . فيزداد وعياً وثقافة ويكون على علم بأخبار بلاده وأخبار العالم ، ويطلع على أحوال مجتمعه وأحوال المجتمعات الأخرى . وذلك يعنى أن الاهتمام بالصحف والمجلات والمذياع والتلفزيون من الاهتمام بأمر الوطن واهمالها من اهمال الوطن . ولذا أقول إن مطالعة الصحف والمجلات والاستماع إلى المذياع والتلفزيون والاهتمام بأمر الوطن واجب ثقافى وواجب وطنى وقومى .

السياسة والأخلاق

كثيراً ما يقال فى عالم السياسة أن السياسة شىء والأخلاق شىء آخر، وأنه لا اتفاق بين السياسة والأخلاق، وأن السياسة الناجحة هى السياسة التى لا تسلك سبيل المبادىء والأخلاق، وتقوم على القول المعروف «الغاية تبرر الواسطة». ولكن من من يقرأ تاريخ العالم السياسى قديمه وحديثه يتبين له أن هذه الأقوال والعبارات ليست من السياسة الرشيدة الناجحة فى شىء، وأن السياسة الحكيمة المثمرة هى التى تقوم على الأخلاق والمبادىء الإنسانية، ويتبين له أيضاً أن عباقرة السياسة ومؤسسى الدول وبناة النهضات وقادة الشعوب كانوا يتحلون بالأخلاق الكريمة والمبادىء الإنسانية، وأن الفاشلين الخائبين فى ميدان السياسة لم يكونوا من ذوى الأخلاق الحميدة والمبادىء الإنسانية، وأن الأساس السليم الذى تبنى عليه السياسة الحكيمة النافعة هو خدمة الشعب وبناء الوطن وإقامة علاقات حسنة مع الآخرين فى الداخل والخارج ووضع المصلحة العامة فوق المصلحة الخاصة فى نطاق المحافظة على حقوق الآخرين؛ لأن مصالح الناس والشعوب فى كل زمان ومكان متشابكة متداخلة متصلة بعضها البعض. وكما أنه لا يمكن لأى فرد أن ينعزل عن الآخرين كذلك لا يمكن لأى شعب أن

يعيش منعزلا عن الشعوب الأخرى ، فمصالح الجميع لا تصان ما لم يكن هناك احترام متبادل بين الدول والشعوب .

والسياسة الحكيمة الرشيدة تسلك سبيل الشورى والديمقراطية، وتقوم على رضا الشعب وإرادته . فكل سياسة تتبع طريق الاستبداد والانفراد بالحكم وتفرض على الشعب بالقوة والإكراه مصيرها الفشل والسقوط . فالشعب هو الميزان الصحيح لكل سياسة ، ولن يخدم الشعب ولن يكسب ثقته وولاءه إلا سياسى يتسم بالعدل والحق والشرف والأمانة ويتبع طريق الشورى والديمقراطية . فقوام السياسة الحكيمة النافعة العدل والشرف والأمانة . فقد ثبت بالتجربة والواقع أن السياسة التى تتسم بالظلم والباطل تعود على أصحابها بالفشل والضرر والخسارة .

ومن سمات السياسة العاقلة الناجحة الكلمة الطيبة والعمل الطيب والأخذ والعطاء واللين والشدة ، والاعتدال فى الصداقة والعداوة ووضع الشىء فى محله وحينه ، ومخاطبة كل شخص باللغة التى يفهمها ، والإكثار من الأنصار المؤيدين والإقلال من الخصوم المعارضين وكسب ثقة الناس ومحبتهم ، وبمقدار ما يكسب السياسى ثقة الناس به وتأييدهم له يكون عاقلا ناجحا . ولن يكسب سياسى ثقة الناس به وتأييدهم له إلا بخدمة المصلحة العامة وبناء الوطن . هذا فى البلاد المتقدمة الواعية . أما فى البلاد الجاهلة المتخلفة فإن

كسب الأنصار والأعوان يكون بطرق ووسائل غير سليمة .

* * *

قد يقول قائل هنا إن السياسة كالحرب خدعة فنقول له إن السياسة أسلوب والحرب آخر ، وإن كان بينهما اتصال وثيق والغرض منهما واحد . هذا ولا يتبع طريق الحرب والقتال إلا عندما تفشل الطرق السياسية والسلمية . فالحرب نتيجة لفشل طرق السلم والسياسة .

وذلك يعنى أنه من الصواب استعمال الخداع والتضليل مع العدو فى الحرب والسياسة ، ومن الخطأ استعمال ذلك مع غير العدو. فالحرب والسياسة مع العدو خدعة وتضليل ، ومع غير العدو أمانة وصدق واستقامة . كما أنه من الخير للمرء أن يلتزم جانب العدل والحق مع الناس جميعاً ، ومن الشر له أن يسلك طريق الظلم والباطل فى جميع الظروف والأحوال . فقد علمتنا الحياة أن عاقبة الظلم والباطل الخراب والدمار .

إذن السياسة العادلة المنصفة سياسة حكيمة رشيدة نافعة والسياسة الجائرة الظالمة سياسة حمقاء خرقاء ضارة .

وخير دليل على صواب هذا الكلام هو الوقوف على الحياة السياسية لرجال قدامى ومحدثين . ولنأخذ أولا من رجال السياسة

القدماء رسول الله محمد (صلى الله عليه وسلم) . فقد كان يتصف منذ الصغر بالصفات الحميدة ويتخلق بالأخلاق الكريمة وعلى رأسها الصدق والأمانة الأمر الذى دعا أهله ومعارفه إلى تلقيبه بالصادق الأمين . ومن كان مفطوراً على الأخلاق السامية يأبى عليه طبعه الحر الكريم أن يستعمل أساليب الكذب والغش والخداع والدجل مع الناس . وأن يكون لا أخلاقياً فى أقواله وأفعاله .

وقد كان أسلوبه فى نشر الدعوة الإسلامية وفى حروبه مع أعدائه يقوم على الأخلاق السامية والآداب العالية وعلى رأسها الصدق والأمانة والوفاء بالوعد والعدل والرحمة والحلم والتسامح .

ولا أدل على حلمه وتسامحه من موقفه من كفار قريش فى فتح مكة ، فقد عفا عمن آذوه وحاولوا قتله واغتياله ، واضطروه إلى الهجرة من بلده مكة إلى يثرب مع أنه كان قادراً فى ذلك الموقف على الانتقام منهم وإيذائهم كما آذوه من قبل .

وبالحكم والعفو والتسامح حبب إليهم الدين الإسلامى الذى يدعو إليه ورغبهم فى اعتناقه ، وجعلهم يندمون على معاداتهم له ، وتأخرهم عن قبول الدعوة التى يحملها وينشرها . فلو كان قد انتقم منهم ولم يعف عنهم لنفرهم منه وأبعدهم عن الدين الذى ينشره ويدعو الناس إلى الدخول فيه .

أما كفار مكة ، فقد كانت سياستهم تقوم على الظلم والباطل والحقد واللؤم والاضطهاد والأذى والنهب والسلب واستعباد الضعيف واستغلال الفقير ولذلك فشلوا وخسروا واندثروا .

وهكذا كان النجاح والغلبة عاقبة سياسة الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) القائمة على الأخلاق الكريمة ، وكان الفشل والهزيمة عاقبة سياسة كفار مكة وأحزابهم لما انطوت عليه من تنكر لمبادىء الحق والعدل والأخلاق .

ولا غرابة فى أن ينتهج الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) سياسة قوامها وعمادها الأخلاق السامية والآداب العالية والمبادىء الإنسانية . فقد بعثه الله سبحانه وتعالى ليعلم الناس هذه السياسة الحكيمة المثمرة ، وينشر مكارم الأخلاق والآداب ، وعبر صلوات الله عليه وسلامه عن رسالته هذه بقوله : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

فبازدهار الأخلاق الكريمة والمبادىء يزدهر الحق والعدل ويسود الأمن والسلام ، وبانتكاسها واضمحلالها ينتشر الظلم والباطل وتنشب الفتن والحروب ويحرم الناس نعمة الحياة الآمنة المطمئنة .

وهذه هى السياسة الحكيمة الخيرة فى أجمل صورها وأسمى معانيها .

ولا شك فى أن رسول الله محمد عليه الصلاة والصلام وباقى الرسل والأنبياء قدوة حسنة للناس جميعاً فى كل زمان ومكان .

وانتقل رسول الله محمد إلى الرفيق الأعلى سنة ٦٣٤ م وخلفه فى قيادة المسلمين تلميذه المخلص وصديقه الحميم أبو بكر الصديق (رضى الله عنه) . وقد كان شبه أستاذه ومعلمه أخلاقاً وآداباً . وقد سار فى سياسة الأمة وبناء الدولة على نهج كتاب الله القرآن الكريم وسنة رسول الله محمد (صلى الله عليه وسلم) .

وبهذا النهج القويم والخلق الكريم والسياسة الحكيمة كسب ولاء المسلمين والتفافهم حوله . ومن الأخلاق الكريمة التى كان يتحلى بها الخليفة أبو بكر الصديق (رضى الله عنه) الشجاعة والحزم والإخلاص والصلابة فى الحق . وقد تجلت هذه الأخلاق السامية أكثر ما تجلت فى موقفه من حركة المرتدين عن الإسلام إثر وفاة الرسول محمد وتوليه الخلافة . وقد كان المرتدون خطراً على الدولة الإسلامية وهى ما تزال فى المهد .

ومن أخلاقه السامية التواضع وكسبه رزقه من عمل يده وزهده فى المظاهر الكاذبة الفارغة والبساطة فى حياته وعيشته وديمقراطيته الفذة وتمسكه بالعدل والرحمة قولا وعملا ، وسراً وإعلانا . ومن أقواله التى تعبر عن ديمقراطيته وعدالته وتواضعه القول الآتى وهو من خطبة له :

« أيها الناس :

إنى وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقومونى . القوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ الحق له إن شاء الله تعالى . أطيعونى ما أطعت الله فيكم فإن عصيته فلاطاعة لى عليكم ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم » .

وكما كان عادلا رحيما فى سياسته الداخلية كان أيضاً عادلا رحيما فى سياسته الخارجية . ويتجلى ذلك مشرقاً فى وصاياه للجيوش التى أرسلها لفتح الشام والعراق . وقد أوصى قادة هذه الجيوش بالتزام العدل والرحمة فى معاملتهم لأعدائهم ولأهل البلاد التى يدخلونها ونهاهم عن الغدر والخيانة ، وعن قتل طفل صغير أو شيخ كبير أو امرأة كما نهاهم عن قطع شجرة أو حرق زرع أو هدم بيت أو سلب أى شىء .

ومن ذلك ما أوصى به القائد أسامة بن زيد وهو ذاهب بجيشه إلى القتال : « لا تخونوا ولا تغلوا ، ولا تغدروا ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة . ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه . ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة » . ولا ريب فى أن الخليفة أبا بكر الصديق (رضى الله عنه) سيبقى أبد الدهر بهذه السياسة

الحكيمة الخالدة قدوة حسنة صالحة فى عالم الحكم والسياسة .

وتوفى الخليفة أبو بكر الصديق فخلفه فى قيادة المسلمين عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ، وهو كذلك من تلاميذ الرسول محمد وأصفيائه . وقد عرف الخليفة عمر بن الخطاب بقوة شخصيته وسياسته العادلة الحازمة وأخلاقه العظيمة. وعلى رأس هذه الأخلاق العدل والحزم والشجاعة والتواضع والزهد فى المظاهر الزائفة والسهر على مصلحة الشعب والديمقراطية فى الحكم . ومن تواضعه وديمقراطيته قوله لامرأة نبهته إلى خطأ بدر منه عن غير قصد : « أصابت امرأة وأخطأ عمر » . وهو ينهى الناس فى بعض خطبه أن يزيدوا فى مهور النساء على أربعين أوقية . فصاحت به امرأة فطساء من صفوف النساء : ما ذلك ؟ فلم يأنف أن يسألها : ولم ؟ قالت : لأن الله تعالى يقول : « وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتاناً وإثما مبينا » فرجع عن خطئه واعترف بصواب رأيها .

وهذه صورة ثانية من صور تواضعه وديمقراطيته الفذة . فقد خاطب المسلمين قائلا لهم : « من رأى منكم فى اعوجاجاً فليقومه » .

فيجيبه أحد الحاضرين بقوله : « والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بحد سيوفنا » . فيغتبط الخليفة العادل لهذا الجواب، ويعبر

عن اغتباطه وسروره بقوله : « الحمد لله الذى جعل فيكم من يقوم اعوجاج عمر إذا اعوج » .

ومثال آخر يدل على تواضعه وديمقراطيته ألا وهو تبادله ركوب الدابة مع خادمه وهو فى طريقه إلى القدس ، وحمله الطحين والطعام بيده إلى أسرة وجدها جائعة وهو يتفقد أحوال الرعية والشعب فى الليل .

ولعل أجمل صورة للعدالة فى أسمى معانيها وأبهى حللها تتجلى فى محاسبة عمر بن الخطاب لواليه على مصر عمرو بن العاص لاعتداء ابن الوالى بالضرب على رجل مصرى قبطى دون وجه حق . فقد استدعى الوالى وابنه إليه فى المدينة المنورة وطلب من القبطى أن يضرب بنفسه ابن عمرو كما ضربه من قبل . ثم قال الخليفة للوالى عبارته المشهورة : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » .

ويكتفى بهذا القدر القليل من نماذج وصور من الحياة السياسية للخليفة العادل الحازم عمر بن الخطاب رضى الله عنه . فحياته السياسية ساطعة مشرقة كالشمس لا تحتاج إلى توضيح وبيان . وبهذه الأخلاق السامية استطاع عمر بن الخطاب أن يكسب ثقة الشعب به وانضوائه تحت لوائه ، وأن يجعل المجتمع العربى

الإسلامى فى ظل حكم الله كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا وأن ينتزع تقدير وإجلال الصديق والعدو والقريب والبعيد .

وليس أدل على صواب ونجاح السياسة التى تقوم على الأخلاق والمبادىء من أن الشعوب فى مصر والشام والعراق وشمال أفريقيا رحبت بالجيوش العربية الإسلامية التى دخلت بلادها فاتحة ومحررة إياها من استعمار الفرس والروم . والحرب لم تكن بين العرب المسلمين وشعوب هذه البلاد وإنما كانت بينهم وبين دولتى الفرس والروم الاستعماريتين آنذاك . وأهم من ذلك هو أن هذه الشعوب اعتنقت أغلبيتها الساحقة الدين الإسلامى الذى حمله المسلمون الفاتحون معهم . وتثقفت بالثقافة العربية الإسلامية وتعلمت اللغة العربية ومن ثم انصهرت فى بوتقة العروبة والإسلام .

ولا غرابة فى أن ينتهج العرب المسلمون الفاتحون سياسة عادلة رحيمة فى البلاد التى فتحوها . فهم حملة مبدأ ودين سماوى وأصحاب رسالة إنسانية وليسوا غــزاة مستعمرين ، وأصحاب المبادىء والرسالات تراهم دائماً متحلين بالأخلاق والآداب وفى مقدمتها العدل والرحمة .

أما الغزاة المستعمرون فتجدهم دائماً متجردين متعرين من

الأخلاق والمبادىء والقيم الإنسانية ولا هم لهم إلا تحقيق مكاسب مادية ومنافع دنيوية بأية وسيلة وبأى ثمن .

* * *

وصلاح الدين الأيوبى كانت الأخلاق السامية والمثل العليا تتحكم فى أقواله وأفعاله وسياسته . ويتجلى ذلك واضحاً فى معاملته لخصومه الصليبيين . فقد كان عادلا رحيما معهم، فهو لم يبطش بهم عندما انتصر، كما هم فتكوا بالمسلمين عندما انتصروا عليهم واحتلوا القدس فقد أحدثوا فيها مجازر دامية رهيبة وأسالوا دماء غزيرة .

وتتجلى أخلاقه العالية وإنسانيته الفذة أكثر ما تتجلى فى معاملته لأشد أعدائه من الصليبيين وهو ريكاردوس قلب الأسد ملك الانكليز آنذاك . فقد أرسل إليه طبيباً يداويه وهو مريض مع أنه جرت العادة أن يطلب المرء لعدوه اللدود المرض والهلاك .

وبهذه السياسة الرشيدة القائمة على الأخلاق الكريمة والمبادىء الإنسانية استطاع أن يوحد مصر والشام فى دولة واحدة وأن يجمع صفوف معظم المسلمين للانتصار على الصليبيين الغزاة كما أنه اكتسب احترام القريب والبعيد والصديق والعدو قديما وحديثا .

ولعل أحفاد الصليبيين اليوم فى أوربا يقدرون صلاح الدين

الأيوبى ويجلونه لتلك السياسة العادلة الرحيمة والمعاملة الطيبة التى قوبل بها أجدادهم الصليبيون فى الشرق العربى الإسلامى. والصليبيون كانوا فى أعمالهم وتصرفاتهم متحللين من الأخلاق والمبادىء، فقد كانت سياستهم نحو المسلمين طابعها اللؤم والحقد والتعصب الأعمى. فسفكوا الدماء البريئة وأقاموا حمامات الدم وسرقوا ونهبوا وروعوا الآمنين وذبحوا النساء والشيوخ والأطفال وأنشأوا دولا وإمارات فى غير بلادهم وأوطانهم.

أوليس كل ذلك ظلما وباطلا وعدوانا؟ وليس الظلم والباطل والعدوان من الأخلاق الكريمة والمبادىء الإنسانية فى شيء. وماذا كان مصير الصليبيين الظالمين المعتدين ياترى؟ ألم يكن الفشل والهزيمة والاندثار؟

إذن السياسة التى تقوم على الظلم والباطل والعدوان والسلب والنهب وسفك الدماء سياسة حمقاء خرقاء عاقبتها الفشل والدمار.

* * *

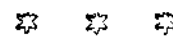
واجتاح المغول التتار بجيوشهم الجرارة الشرق الإسلامى حاملين معهم الخراب والدمار وسفك الدماء وقطع الأعناق والأرزاق. وانتهى ذلك المد فى معركة عين جالوت بفلسطين سنة ١٢٦٠ م. وما لبث سلطان التتار أن انحسر وانهار. وماقصر

عمر امبراطورية المغول التتار وعجل فى تمزقها وانحلالها إلا خلوها من العلم والأخلاق والمبادىء الإنسانية .

أما الفتح العربى الإسلامى الذى شمل الشرقين الأدنى والأقصى وشمال أفريقيا وحوض البحر المتوسط فقد طال عمره وضرب بجذوره فى أعماق الأرض وأينع وأثمر وصهر شمال أفريقيا ومصر والشام والعراق فى بوتقة العروبة والإسلام . وطبع بلادا أخرى كايران وتركيا وقسما كبيراً من شبه القارة الهندية بطابع الإسلام الخالد . وترك فى بلدان أخرى آثاراً حضارية إسلامية ما تزال خالدة على الدهر .

ويرجع ذلك إلى أنه كان يحمل فى طياته بذور الحضارة والمدنية ويحمل أصحابه مشاعل الثقافة والهداية مبشرين برسالة الإسلام القائمة على الأخلاق السماوية والمبادىء الإنسانية ، والفرق بين المدين العربى الإسلامى والمغولى التترى هو الفرق بين العلم والجهل وبين الإنسانية والحيوانية وبين المدنية والهمجية .

والنجاح والخلود دائماً للعلم والقيم الإنسانية والحضارة والمدنية والاندثار والفناء للجهل والحيوانية والهمجية .



والدارس للتاريخ العربى الإسلامى يتبين له أن الدولة العربية

الإسلامية ما أسست وبنيت وازدهرت إلا فى عهود الخلفاء والمسلمين الذين كانوا يتسلحون بأخلاق الإسلام وآدابه ومبادئه. وما أصابها التفكك والانقسام إلا فى عهود الخلفاء والمسلمين الذين ابتعدوا عن الأخلاق والمبادىء الإسلامية .

* * *

ونأتى إلى العصر الحديث فنرى أن الاستعمار الغربى قد أصاب العالم كله . وسياسة الاستعمار الغربى كما هو معروف طابعها استعمار الشعوب الضعيفة ونهب ثرواتها وخيراتها وشعارها « فرق تسد » و « الحق للقوة » و « الغاية تبرر الواسطة » . ويستعمل الاستعمار الغربى أساليب الغش والخداع والدجل ، ويسلك طرق الغدر والخيانة والظلم لبلوغ أغراضه ومآربه . وهذه الطرق والأساليب تبرأ منها الأخلاق الكريمة والمبادىء الإنسانية .

وغنى عن البيان أن سياسة الاستعمار الغربى لقيت وما تزال تلقى فى كل مكان حلت وتحل فيه مقتاً واستنكاراً ومقاومة مسلحة وغير مسلحة وآلت وتئول إلى الفشل والخسارة والاندثار . والسياسة الرشيدة الناجحة هى التى تحظى برضا الناس وتأييدهم وتخدم مصالحهم وتصلح أحوالهم وأوضاعهم .

ولقد اعتمد الاستعمار الغربى فى تطبيق سياسته ورواج بضاعته على القوة والإكراه ، وذلك أسلوب سقيم عقيم يدل على ضيق

الأفق وقصر النظر . فالحكمة تقضى أن تقوم السياسة السليمة على الرضا والمحبة وكسب ثقة الناس بها لا أن تقوم على القوة والإرغام ولا أن تكتسب مقت الناس لها وسخطهم عليها ومقاومتهم لها .

فمن عواقب سياسة الاستعمار الغربي الحمقاء الظالمة مشاكل وفتن وحروب راح وقودها عشرات الملايين من الضحايا البشرية وثروات وأموال طائلة لا تعد ولا تحصى . ولا ريب فى أن المطامع الاستعمارية كانت الدافع إلى نشوب حربين عالميتين فى النصف الأول من القرن العشرين . وما تزال هذه السياسة الاستعمارية اللا أخلاقية اللا إنسانية تنذر العالم بحرب عالمية ثالثة سلاحها القنابل الذرية والهيدروجينية والأسلحة الجرثومية ، وحرب من هذا النوع وهذه الأسلحة تعنى تدمير العالم وحرقه وإبادة شاملة للجنس البشرى .

وهناك حروب محدودة وثورات دامية عديدة أدت إليها سياسة الاستعمار الغربي ومنها حرب التحرير الجزائرية التى انتهت عام ١٩٦٢ م . وكانت بين الاستعمار الفرنسى والشعب الجزائرى الباسل . وحرب فيتنام الأخيرة بين الاستعمار الأمريكى والشعب الفيتنامى البطل .

وأصعب المشاكل وأخطرها التى خلقتها سياسة الاستعمار البريطانى والأمريكى مشكلة فلسطين ، فهى مشكلة تشكل خطراً حقيقياً

على السلم العالمى . فإقامة إسرائيل كدولة دخيلة فى أرض عربية أكبر جريمة ارتكبها الاستعمار الغربى وأقبح خطأ اقترفته السياسة الاستعمارية البريطانية والأمريكية .

ولا شك فى أن طرد شعب آمن من وطنه ودياره وإحلال شعب دخيل محله وإقامة دولة للشعب الدخيل على أنقاض وأشلاء الشعب الأصيل المطرود هدم لقوانين الحق والعدالة وإهدار للقيم الخلقية والمبادىء الإنسانية .

وفى رأيى أن الاستعمار البريطانى والأمريكى كان أحمق قصير النظر بمساهمته الفعالة فى إقامة دويلة إسرائيل على أشلاء الشعب العربى الفلسطينى وحماية هذه الدويلة ليضمن بقاء مصالحه ونفوذه فى العالم العربى على المدى القصير والبعيد لأنه بهذه المساهمة اكتسب مقت العرب لسياسته الحمقاء الجائرة وسخطهم عليها ومقاومتهم لها، وذلك أدى إلى ذهاب الكثير من مصالحه ونفوذه، وما تزال البقية الباقية من مصالحه مهددة بالضياع والزوال . فلو أنه لم يشارك فى إقامة الوجود الصهيونى فى العالم العربى لما اكتسب سخط الأمة العربية عليه ومقاومتها لوجوده فى أرضها ، وبقيت علاقته بالشعب العربى حسنة طيبة وذلك خير وأبقى لمصالحه فى العالم العربى حاضراً ومستقبلا . فما يحفظ مصالح أية دولة فى أى بلد هو أن تكسب تلك الدولة ثقة ومحبة الشعب الذى لها مصالح عنده وأن تحسن إليه لا أن تكتسب

سخطه ومقته وتسىء إليه . فالمصالح لا تصان والعلاقات الحسنة لا تقام إلا بتبادل المحبة والاحترام .

وذلك يعنى أن وجود إسرائيل فى أرض عربية من ثمار السياسة الاستعمارية المتحللة من الأخلاق والمبادىء والمثل العليا .

ومن خير الأمثلة على بطلان السياسة التى تبتعد عن الحق والعدل وجود فرنسا الاستعمارى السابق فى الجزائر . فقد ادعت فرنسا أن الجزائر من أرضها وعملت مدة قرن وثلث من الزمن للقضاء على الشخصية القومية للجزائر وصهرها فى البودقة الفرنسية، وماذا كانت النتيجة يا ترى؟ كانت النتيجة تبخر التزييف والتزوير وبقاء الصدق والحق وهلاك الباطل والافتراء وإشراق الحقيقة .

وهكذا الغلبة والحياة والخلود فى كل زمان ومكان للحق والصدق والحقيقة ، والاندثار والفناء للباطل والزور والبهتان .

* * *

ومن يتأمل فى تاريخ العالم القديم والحديث يعرف أن البيئات والمجتمعات التى كان يسودها فساد اجتماعى وانحلال خلقى تمخضت عن ثورات اجتماعية كبرى كثورة الإسلام والثورة الفرنسية والثورة الشيوعية فى روسيا والصين . ويعرف كذلك أن أنظمة الحكم السياسية التى كانت تقوم على الاستبداد والظلم والغش والخداع وغير ذلك من الأخلاق السيئة كان مصيرها السقوط

والانهيار ، وأن رجال السياسة الذين يحيدون عن الحق والعدل والأمانة والشرف والتضحية والإيثار وما إلى ذلك من أخلاق كريمة كانت عواقبهم الفشل والسقوط .

ولم لا نقول إن أجهزة الإعلام والدعاية التى تتخذ الكذب والدجل والنفاق والخداع مادة لها تبوء بالفشل والإخفاق . وإذا مانجحت فإن نجاحها يكون قصيراً مؤقتاً وعلى اعتبار أن ما تقوله وتفعله هو الصدق والحقيقة والواقع . ولا يلبث هذا النجاح المؤقت الزائف أن يتحول إلى فشل وإخفاق عندما ينكشف الغطاء وتنقشع الغيوم ويبرز الحق وتسطع الحقيقة. وكل مايخالف الحقيقة والواقع يطير هباء ويذهب جفاء . والدجل والكذب والتضليل كالغشاوة على العين وكالضباب أو السحاب على نور الشمس . ولكن الغشاوة لا تطول ولا تلبث أن تزول فترى الحقيقة . وسرعان ما ينقشع الضباب والدجل والسحاب فتسطع الشمس . وثوب النفاق والكذب والدجل شفاف لكل ذى بصر وبصيرة . والكذب لا يمكث على نور الصدق والحقيقة كما أن الضباب لا يبقى طويلا على نور الشمس .

* * *

وخلاصة ما تقدم أن السياسة الحكيمة النافعة هى السياسة

التى تقوم على الأخلاق الكريمة والمبادىء الإنسانية ، وأن السياسة المتحللة من الأخلاق والمبادىء تنم عن الحمق وقصر النظر وتؤدى إلى الفشل والخسارة وتجر إلى مشاكل وحروب . فلا أمن ولا سلام فى أى زمان ومكان إلا بالحق والعدل من قبل الناس جميعاً .

* * *

القوة الوحيدة التي لا تقهر

يحدثنا التاريخ قديمه وحديثه أنه برزت على سطح الأرض قوى بشرية تجسد فيها الحمق والغرور والبطر والصلف تجسداً دفعها إلى الإدعاء بأنها قوى لا تهزم ولا تقهر وتستطيع السيطرة على العالم كله . فكانت تستصغر غيرها وتستهين به . ولكن انبرت لها قوى أعظم منها وأقدر استطاعت أن تحطمها وتقهرها .

وما من يد إلا يد الله فوقها ولا ظالم إلا سيبلى بأظلم

ولا ريب فى أن ادعاء قوة بأنها قوة لا تقهر ولا تغلب مما يدل على منتهى الحمق والغرور والغطرسة . وهذا الإدعاء يدل على مرض نفسى وعقلى ، ويشكل غشاء على البصيرة يحجب عنها نور الحقيقة وصورة الواقع . وعمى يصيب بصرها ، فتهوى من شاهق إلى هوة وتلقى بنفسها إلى التهلكة والانتحار .

ومن تلك القوى القديمة الإسكندر الأكبر المقدونى ودارا الأكبر الفارسى والدولة الرومانية .

والجيش العربى الإسلامى فتح ما بين الصين شرقاً وفرنسا

غرباً . ومع ذلك توقف زحفه عند جنوب فرنسا فى معركة تور أو بلاط الشهداء سنة ٧٣٢م .

والمغول التتار اجتاحوا الشرق ، فصور لهم الغرور أنهم قوة لا تقهر ، ولكنهم قهروا فى معركة عين جالوت بفلسطين على يد الجيش المصرى الشامى .

وفى الماضى القريب ظهرت قوى دولية أخـــرى منها الامبراطورية البريطانية وامبراطورية نابليون الفرنسى وألمانيا النازية الهتلرية .

فجميع هذه القوى الدولية القديمة والحديثة اغترت بنفسها واعتدت بأنها لا تقهر ولا تتحطم ، وحاولت السيطرة على العالم ولكنها قهرت وهزمت وفشلت فى محاولاتها السيطرة على العالم .

وتبرز اليوم فى العالم ثلاث قوى دولية عالمية هى الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأمريكية والصين الشعبية . ولن تستطيع أية هذه القوى العالمية الثلاث الانفراد وحدها بالسيطرة على العالم كله لأن ذلك ليس فى مقدورها وفوق طاقتها ومخالف لقانون الطبيعة وناموس الكون وسنة الله التى لا تسمح لأية قوة بشرية بالغة ما بلغت أن تسيطر وحدها على العالم . فالسيطرة على العالم من أمر الله وحده لاشريك له . فلو قدر لقوة بشرية واحدة أن تسود العالم كله لتألهت ونصبت نفسها ربا لهذا الكون .

وهذا لن يكون أبدا لأنه لله وحـــده لا شريك له فاطر السموات والأرض والذى بيده أمر هذا الكون وهو على كل شيء قدير .

يفهم مما تقدم أن قوة الله تعالى خالق هذا الكون هى القوة العظمى الوحيدة المسيطرة حقاً على هذا الكون ، والتى لا يمكن قهرها ولا ترقى إليها قوة أخرى . ويفهم كذلك أنه لم توجد ولن توجد القوة البشرية التى يستحيل دحرها وقهرها . فكل قوة بشرية يمكن إلحاق الهزيمة بها وتحطيمها . فالقوة البشريه التى تدعى بأنها لا تغلب ولا تقهر تشهد على نفسها بالحمق والطيش والصلف والغرور وتحكم على نفسها بالفشل والانهيار والهلاك .

وداء الحمق والغرور والبطر والصلف والإدعاء بالقوة التى لا تغلب ولا تقهر يصيب اليوم حكام إسرائيل وقادتها . وما أصاب هذا الداء الوبيل المميت ناساً إلا حطمهم وأذلهم وأهلكهم ، وجاءهم هذا الداء من انتصارات رخيصة سابقة أحرزوها على بعض الحكومات العربية . والمتأمل المتفكر يتبين له أن ما أحرزته إسرائيل من انتصارات سابقة على بعض الدول العربية تم تحت مظلة الاستعمار الغربى وفى غياب تعاون العرب واتحادهم ، وفى جو تفشى فيه داء التخلف والرجعية والخيانة والعمالة فى جسم الأمة العربية .

فاسرائيل فى الواقع والحقيقة لم تخض حرباً فعلية مع الأمة العربية منذ قيامها سنة ١٩٤٨ . ففى عام ١٩٤٨ وما قبله لم يستطع الشعب العربى الفلسطينى فى ظل الاستعمار البريطانى الذى ولد إسرائيل ورباها أن يعبىء قواه الوطنية ويعد القوة الكافية لمقاومة الخطر الصهيونى. والجيوش العربية التى دخلت فلسطين سنة ١٩٤٨م كانت ناشئة ضعيفة وتفتقر إلى التنسيق والتعاون الفعلى المنظم بينها . وكانت تقودها وتوجهها حكومات عربية يدير عجلتها الاستعمار الغربى الذى كان وما زال يتبنى إسرائيل ويرعاها ويحميها . ومعروف أن قسما من فلسطين العربية المحتلة تسلمه اليهود من بعض الحكومات العربية بدون قتال .

وحرب عام ١٩٥٦ م كانت فى واقعها وحقيقتها مع الاستعمار البريطانى الفرنسى ولم تكن إسرائيل فيها إلا الفتيل الذى أشعل به الاستعمار نار الحرب . وقد انسحب الجيش المصرى من سيناء لمواجهة القوات البريطانية والفرنسية التى أنزلت فى بور سعيد .

وفى عام ١٩٦٧ م لم يكن لدى مصر وسوريا خطة مدروسة لخوض حرب هجومية مع إسرائيل . وقد أخذت إسرائيل مصر وسوريا على حين غرة وغفلة ونجحت بالغدر والخديعة وتحت مظلة الاستعمار الأمريكى المقنع فى ضرب الطيران المصرى وهو جاثم على الأرض . أضف إلى ذلك ما كان من تلاعب وانحراف واستهتار

لدى بعض المسئولين العرب . وبذلك انتصرت إسرائيل على مصر وسوريا والأردن فى حرب عام ١٩٦٧ م. واحتلت صحراء سيناء وهضبة الجولان والضفة الغربية . فتوهم حكام إسرائيل وقادتها لغرورهم وصلفهم أن إسرائيل صارت قوة لا تقهر ولا تغلب مع أن العاقل الواعى يختبر مدى قوته وقدرته مع شخص سليم معافى قوى لا مع شخص عليل ضعيف .

أما فى هذه الحرب ، حرب أكتوبر ١٩٧٣ م فإن إسرائيل واجهت أول حرب فعلية حقيقية مع جيوش عربية أحسن تدريبها وإعدادها وتسليحها ، وتقودها وتوجهها قيادة عربية موحدة واعية صادقة وستثبت للعالم أجمع أن ادعاء إسرائيل بأنها قوة لا تغلب ولا تقهر إنما هو من أضغاث الأحلام والأوهام والخرافات ، وستلحق بها ما لحق بالقوى التى سبقتها وادعت ما ادعته إسرائيل بأنها لا تهزم ولا تقهر مع أن إسرائيل قوة عسكرية محلية وليست قوة حربية دولية. وهى قزم يتقمص شخصية عملاق وهو يحكى صورة الأسد بجانب القوى العالمية الحقيقية .

وقد استمدت إسرائيل انتصاراتها السابقة من تفرق العرب وانقسامهم على أنفسهم وافتقارهم إلى التخطيط السليم أكثر مما استمدتها من قوتها الذاتية ، ويوضح ذلك ما قاله ابن غوريون

رئيس وزراء إسرائيل السابق من أن « الخلافات العربية أقوى حليف لنا من بريطانيا وأمريكا » .

ولا شك فى أن إسرائيل دولة طماعة باغية تأخذ ولا تعطى وعاقبة الطمع والعدوان الضرر والخسارة . وهى متعصبة متطرفة فى موقفها ولا يجنى من التعصب والتطرف إلا الفشل والخسران . وهى لا أخلاقية لا إنسانية . وكل جماعة لا إنسانية لا أخلاقية مصيرها الاندثار والهلاك ، وهى لئيمة حاقدة غادرة والحقد واللؤم سم يسرى على بدن صاحبه .

وقد غالت وجاوزت المدى فى اعوجاجها وانحرافها عن جادة الحق والعدل والصواب والعوج يكسر صاحبه كما أن العصا تنكسر باللى والتعويج .

لاتناقض بين العروبة والإسلام

العرب كأمة متميزة عن الأمم الأخرى كانوا قبل الإسلام بعده ومازالوا حتى اليوم . وقد كان العرب يتميزون عن الشعوب لأخرى قبل الإسلام بلغة واحدة مشتركة هى اللغة العربية قومية واحدة هى القومية العربية ، ووطن واحد هو شبه الجزيرة عربية ، وكانت تجمعهم أحياناً آمال وآلام واحدة ومصلحة شتركة تجلت أكثر ما تجلت فى تجمعهم لمحاربة الفرس فى موقعة ى قار المشهورة ولم يكن يسودهم معتقد دينى واحد بل كان قسم بير منهم يعبد الاصنام والأوثان ، ويتخذ من الكعبة محجة يحج ليها . وكان قسم غير قليل منهم يدين بالنصرانية كنصارى نجران الشام ، وكان قسم قليل منهم يميل إلى اليهودية .

وكان يسود معظمهم نظام واحد هو النظام القبلى ، وكانت بائل العربية فى شبه الجزيرة العربية تعتمد فى حياتها وعيشها لى رعى المواشى والإبل والأغنام وعلى عوائد الغزو والسلب النهب كما وجد من اشتغل فى التجارة وخاصة قبيلة قريش فى مكة .

وقد عرف العرب قبل الإسلام بأخلاق وصفات مشتركة مها الشجاعة والكرم والجود وإغاثة الملهوف والنجدة وإباء

الضيم والتمسك بالشرف ولا سيما شرف المرأة والوفاء بالوعد، وعرفوا أيضاً بعادات وتقاليد سيئة أهمها وأد البنات وممارسة الازلام والانصاب والميسر والرباء.

وذلك يدل على أن أوضاع العرب وأحوالهم المختلفة كانت فاسدة سيئة وتحتاج إلى ثورة إصلاحية شاملة يفجرها ويقودها مصلح ثائر أعظم. وقد كانت تلك الثورة ثورة الإسلام الكبرى، وكان ذلك الثائر المصلح الأعظم رسول الله محمد (صلى الله عليه وسلم) . وقد حمل الله سبحانه وتعالى رسوله محمد رسالة الإسلام وأرسله إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً ، وقد بدأ رسول الله محمد بدعوة قومه العرب إلى الإيمان بالله ورسوله واعتناق الإسلام الحنيف، وقد كان من البديهى أن يفعل ذلك لأن القرآن عربى والنبى عربى وواضح أن العرب الذين جاء القرآن الكريم بلغتهم العربية أول من يستطيع أن يفهم القرآن ويعى الإسلام، وأول من يستطيع الرسول العربى أن يخاطبهم ويتفاهم معهم ويفهمهم ويفهمونه وفى ذلك قال الله تعالى مخاطبا العرب (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم) .

وقد كان العرب ومازالوا هم المعنيين أولا وقبل غيرهم بالإسلام، وليس أدل على ذلك من أن القرآن أنزل معجزة فى بلاغة

القول والكلام وتحدى العرب فيما عرفوا به من بلاغة وفصاحة وبيان .

وذلك يعنى أن العرب كانوا مهد الإسلام ، وأول من كلفوا باعتناقه وحمله إلى الناس كافة ونشره فى العالم ، وما زالوا هم المعنيين أولا وقبل غيرهم بحمل الإسلام ونشره والمحافظة عليه وذلك بحكم كون القرآن عربيا وكونهم عربا وهذه الحقيقة تجلت فى أيام الرسول وفى عهود الخلفاء الراشدين والخلفاء الأمويين والعباسيين . فالعرب والمسلمون هم الذين أقاموا الدولة العربية الإسلامية فى المدينة المنورة وشبه الجزيرة العربية ، وهم الذين نهضوا بالعبء الأكبر فى توسيع رقعة الدولة وما رافقها من فتوحات إسلامية امتدت إلى جنوب فرنسا غربا وحدود الصين شرقا ، وهم الذين كان لهم النصيب الأوفى فى نشر الإسلام ورفع راياته فى البلاد التى دخلوها فاتحين، وظلت الدولة العربية الإسلامية قوية مزدهرة ما بقى العرب المسلمون يتولون أمورها ويرعون شئونها ويقودون سفينتها . ولما ضعف العرب المسلمون فى الدولة ونحوا عن رعايتها وقيادتها لضعف الإسلام الصحيح فى نفوسهم وابتعادهم عنه ضعفت الدولة وانحلت وانقسمت إلى دويلات ضعيفة ثم تعرض العالم الإسلامى للاحتلال الأجنبى .

ونعود إلى القول بأن الإسلام تناول إصلاح جميع نواحى

الحياة العربية وبناء كل جوانبها ، فاجتث جميع معتقدات العرب وأفكارهم الدينية الباطلة وغرس فى نفوس الأغلبية الساحقة منهم عقيدة دينية واحدة هى الإسلام، وبذلك وحدهم فى الدين والمعتقد والروح وكانت هذه الوحدة المنطلق إلى توحيدهم فى نواحى الحياة الأخرى والأساس الذى بنى عليه المجتمع الإسلامى المتين المتماسك الذى يشد بعضه بعضا كالبنيان المرصوص، والإيمان بالله يبعث على التسلح بالأخلاق الكريمة والآداب السامية التى يتضمنها الإسلام ويقوم عليها كالتراحم والتعاطف والتعاون على فعل الخير، وإحقاق الحق وهدم الشر والباطل والشجاعة والعدالة والمحبة والأمانة والتواضع والقيام بالواجب والشعور بالمسئولية، والإيثار وإنكار الذات والجهاد فى سبيل الله ، وما إلى ذلك من أخلاق سامية، وما الإسلام فى حقيقته وجوهره إلا أخلاق سامية وآداب عالية وقد بين لنا ذلك رسول الله محمد (صلى الله عليه وسلم) بقوله : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

والرقى الأخلاقى أساس الرقى والتقدم فى نواحى الحياة الأخرى .

وتمسك المسلمين بهذه الأخلاق والآداب جعلهم أخوة متحابين متعاونين متحدين ، وأسرة واحدة متراحمة متعاطفة .

وحارب الإسلام ما انتشر فى البيئة العربية من عادات وتقاليد

باطلة وأمراض اجتماعية وبيلة كالميسر والأزلام والأنصاب والخمر ووأد البنات ، وهذه العادات والتقاليد الباطلة تجعل المجتمع فاسداً مريضاً ، وتقعده عن العمل والبناء والتقدم .

وهدم الإسلام النظام القبلى ، وجمع القبائل العربية المتفرقة المتغازية تحت سقف دولة واحدة هى الدولة العربية الإسلامية .

وذلك يعنى أن التغيير الذى أحدثه الإسلام فى حياة العرب المسلمين هو تقويم أفكارهم ، ومعتقداتهم وتهذيب نفوسهم وتعليمهم مكارم الأخلاق وسامى الآداب ، وتغيير موازين حياتهم ، وبذلك تحرروا واستقلوا من بعد خضوع وتبعية للفرس والروم والأحباش ، وتجمعوا وتوحدوا فى ظل دولة واحدة بعد تفرق وانقسام وتقدموا بعد تأخر وتخلف وأقاموا أعظم دولة عربية إسلامية وبنوا أرقى حضارة فى العصور الوسطى .

ولم يهدم الإسلام معالم الشخصية العربيـة بل هذبها ونظمها وطهرها من أدران التفرقة العنصرية الهوجاء والتعصب القومى الأعمى وجعل علاقات الناس جميعاً بعضهم ببعض تقوم على المحبة والإخاء والتعاون والتعارف والحق والعدل ، وقد بين الله تعالى ذلك بقوله : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

فالله سبحانه وتعالى فى هذه الآية الكريمة لا ينفى الكيان القومى لكل شعب بل يعترف به، ويبين العلاقات السليمة المتينة التى ينبغى أن تقوم بين الأفراد والشعوب والدول، وهى علاقات أساسها المودة والتعارف والتعاون ويعلمنا أنه لا فضل لشخص على آخر ولا لشعب على شعب إلا بالخير والتقوى وخدمة الحق والسلام والإنسانية .

وهكذا نهض العرب وتقدموا فى عهد الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) وعهود الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين وقاموا بفتوحاتهم المشهورة ونشروا الإسلام فى أرجاء المعمورة وهم عرب مسلمون ولكن الدولة العربية الإسلامية أخذت تضعف وتنحل وتتمزق عندما ضعف العرب وانحلوا وتولى منهم قيادة السفينة مسلمون غير عرب، والعرب المسلمون فى الحقيقة والواقع هم مؤسسو الدولة وبناتها وحماتها وجندها المخلصون، ولا عجب فهم أدرى من إخوانهم المسلمين الآخرين بقيادة السفينة الإسلامية ليس إلا لأنهم عرب والقرآن عربى وكلفوا بحمل الإسلام إلى الأمم الأخرى ونشره فى أرجاء العالم ولا يفهم الإسلام الصحيح على حقيقته إلا من عرف اللغة العربية وأجادها فلذلك كانت مسئوليتهم تجاه الإسلام أعظم من مسئولية المسلمين الآخرين .

وتاريخ العرب والمسلمين يشهد بأن ماظهر فى المجتمع الإسلامى

من ملل ونحل وفرق ومذاهب بعيدة عن الإسلام الصحيح كان وما يزال فى أغلب الأحيان من عناصر إسلامية غير عربية .

يفهم مما تقدم أن العرب المسلمين كانوا ومازالوا مسئولين أولا وقبل إخوانهم المسلمين الآخرين عن حمل الإسلام ونشره والمحافظة عليه لأنهم أدرى من غيرهم بالإسلام ليس إلا لأن الإسلام أنزله الله تعالى باللغة العربية لغة العرب القومية .

ويفهم أيضاً أنه لا تناقض ولا تباين بين العروبة والإسلام فالعرب المسلمون نهضوا فى الماضى وتقدموا وأقاموا أعظم دولة وأرقى حضارة فى العصور الوسطى وهم عرب ومسلمون معاً وكذلك اليوم يمكنهم أن ينهضوا ويتقدموا وهم عرب ومسلمون معاً . فلا تضاد ولا تنافر بين العروبة والإسلام ، فالعروبة تعنى القومية العربية التى ينتمى العرب إليها والأصل العربى الذى انحدروا منه، والإسلام هو الدين الذى يدينون به، والإسلام مذهب وشريعة ودستور وقانون سماوى ونظام حياة وأخلاق وآداب ومثل عليا ومعانى إنسانية وقيم روحية وأفكار ثورية تحررية ، وكل شعب يحتاج فى حياته إلى ذلك لينهض ويتقدم ويحيا حياة إنسانية كريمة ماضية آمنة ، ولا شك أن الدين الواحد والقومية الواحدة فى مقدمة العوامل والروابط التى تلزم لجمع أفراد أى شعب فى ظل دولة واحدة، والشعب العربى من محيطه إلى خليجه تربط بين أفراده

كل الروابط والعوامل اللازمة لتجميعه وتوحيده فى ظل دولة واحدة وأهمها القومية العربية والدين الإسلامى الحنيف الذى تعتنقه الأغلبية الساحقة منه والتاريخ الواحدة والحضارة الواحدة والوطن الواحد والمصلحة المشتركة والآمال والآلام الواحدة. والأغلبية المسلمة تجمع بينها هذه الروابط كلها وتربطها بالأقلية المسيحية عوامل الاتحاد كلها ما عدا رابطة الدين وغياب رابطة واحدة من مجموعة روابط لا يمنع من أن تعيش أكثرية مع أقلية فى ظل دولة واحدة. ولم لا نقول أنه لا يخلو أى مجتمع بشرى من وجود أكثرية وأقلية فيه.

وخلاصة القول أنه لا تناقض ولا تضاد بين العروبة والإسلام وأنه لا عز للعرب ولا اتحـــاد إلا بالإسلام ولا عز للإسلام ولا ازدهار إلا بالعرب المسلمين الصادقين.

لا يتخاصم الذين يخدمون المصلحة العامة

من يقرأ التاريخ ويتأمله يستخلص منه عظات بالغة وعبرا عظيمة ودروسا بليغة تصلح لكل زمان ومكان . ومن ذلك دعوة عمر بن الخطاب رضى الله عنه المهاجرين والأنصار فى سقيفة بنى ساعدة إلى مبايعة أبى بكر الصديق بالخلافة لا إلى مبايعته هو نفسه . فهو فى سبيل صالح المسلمين العام قدم أبا بكر على نفسه لتولى منصب الخلافة. وكذلك خالد بن الوليد وأبو عبيدة عامر بن الجراح (رضى الله عنهما) فهما قد اتفقا وتعاونا ولم يتخاصما فى سبيل الصالح العام فى معركة اليرموك . فخالد بن الوليد قبل أن ينحى عن قيادة جيش المسلمين عندما تسلم الأمر بذلك من الخليفة عمر بن الخطاب ، وقال : « أنا لا أحارب من أجل عمر » . وأبو عبيدة تأسف صادقا لتنحية خالد ولم يتهافت على منصبه الجديد وهو القائد العام لجيش المسلمين وكتم الأمر وبقى منضويا تحت راية خالد حتى نهاية المعركة .

ترى لماذا لم يتخاصم عمر مع أبى بكر على منصب الخلافة ولم يتنازع خالد وأبو عبيدة على منصب القائد العام لجيش العرب المسلمين ؟ لم يتخاصموا ولم يتنازعوا لأنهم أصحاب عقيدة وحملة

مبدأ ورسالة . وأصحاب العقائد الراسخة وحملة المبادىء السامية لا يكونون أنانيين ويؤثرون الصالح العام على الصالح الخاص .

ولو اتجهنا إلى الغرب اليوم لرأينا الأحزاب السياسية هناك تتنافس وتتبارى فى ميدان الخدمة العامة وفى إطار المصلحة العامة ويحدث بينها تعاون وائتلاف لا سيما فى الأزمات والشدائد . وخير مثال على ذلك حزبا المحافظين والعمال فى بريطانيا فقد تعاونا وائتلفا فى حكومة واحدة إبان الحرب العالمية الثانية لمواجهة ألمانيا النازية . وكذلك الائتلاف الذى تم بين الأحزاب الإسرائيلية فى حكومة واحدة قبيل حرب ٥ حزيران ١٩٦٧م .

يفهم مما تقدم أن الذين يعملون للصالح العام لا يتباغضون ولا يتخاصمون بل يتنافسون ويتعاونون . ولا يتخاصم إلا الأنانيون الذين يعملون لمصالحهم الخاصة ، ويمكن أن يتخاصم كذلك من يعمل للصالح العام ومن يعمل للصالح الخاص . ولا عجب فى ذلك فالخصام يمكن أن يحدث بين أهل الحق وأهل الباطل أو بين أهل الباطل أنفسهم . والمتأمل المتفكر يتبين له أن الأنانى الذى يقدم مصلحته الخاصة على المصلحة العامة يضر نفسه قبل أن يضر غيره ولا يجنى من أنانيته إلا الخسارة والفشل ومقت الناس له ونفورهم منه ؛ (ويدل على ذلك عبد الكريم قاسم رئيس وزراء العراق الأسبق وقبله نورى السعيد وعبد الإله والملك السابق فاروق

غفر الله لهم ذنوبهم فقد كان الناس فى حياتهم يذمونهم ويمقتونهم ويذكرونهم اليوم فى مماتهم بالسوء والشر) . أما الشخص غير الأنانى الذى يضحى بمصلحته الشخصية فى سبيل المصلحة العامة فإنه ينفع نفسه وينفع غيره ويرفع نفسه من حيث يدرى أو لا يدرى ، فكلما أنكر المرء ذاته رفعها وعظمها . ونعرف ذلك من الرجوع إلى عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد وأبى عبيدة وغيرهم من الرجال الذين برئوا من الأثرة والأنانية وتحلوا بنكران الذات والتضحية والإيثار . فهم وأمثالهم عظماء خالدون فى التاريخ . فبهم ترتقى الشعوب وتنهض الأمم وتتوحد البلاد المتفرقة المجزأة وتتحرر الشعوب المستعمرة . أما الأنانيون الذين يقدمون مصالحهم الفردية الخاصة على المصالح العامة فهم عوامل ضعف وتفرقة وتخلف وهم أعداء داخليون ومرض فى جسم المجتمع الذى يعيشون فيه . ومنهم يكون الخونة المنحرفون وعملاء الاستعمار وأعوانه .

ولاشك فى أن الأنانية والأثرة وتفضيل المصلحة الخاصة على المصلحة العامة من الصفات الذميمة والأمراض الخلقية الوبيلة التى تصيب الأمة العربية بالضعف والتخلف وتحول دون التعاون والاتحاد بين الأقطار العربية وتمنع قيام الواحدة العربية الشاملة .

القوى النابه يبرز وينجح فى أى مجتمع كان

التقى نيكيتا خروشوف رئيس وزراء الاتحاد السوفيتى الأسبق وسكرتير الحزب الشيوعى الروسى بجماعة من رجال الأعمال الأمريكيين فى الولايات المتحدة الأمريكية عندما كان يقوم بزيارة لها . فأخذ أحد رجال الأعمال الأمريكيين يعدد ما يمتاز به النظام الرأسمالى الحر من حرية وعدالة وديمقراطية وتكافؤ فرص وذكر أنه بدأ حياته فقيراً ثم صار فى ظل النظام الرأسمالى الحر ذا ثراء ومجد وجاه ومركز مرموق . ولو أنه كان فى مجتمع اشتراكى شيوعى لما تسنى له أن يبلغ ما بلغه فى مجتمعه الرأسمالى الحر .

فرد عليه نيكيتا خروتشوف بقوله أنه هو شخصياً كان عاملا فقيراً ثم ارتقى إلى منصب سكرتير الحزب الشيوعى ورئيس وزراء الاتحاد السوفيتى فى ظل مجتمعه الشيوعى الاشتراكى .

* * *

يفهم مما قاله الرجلان أن الأمريكى وصل إلى الثراء والمجد بجده واجتهاده ونشاطه وذكائه ، كما أن الروسى ارتقى كذلك من عامل بسيط إلى رئيس وزراء بذكائه وعصاميته وقوة شخصيته . وذلك يدل على أن الأساس فى تقدم المرء ونجاحه وبلوغه الثراء والمجد

والشهرة هو قدراته الذاتية من ذكاء وحيوية ونشاط وأخلاق وعصامية سواء كان فى مجتمع رأسمالى أو فى مجتمع اشتراكى . فالضعيف الخامل يفشل وينحدر أينما كان والقوى النابه ينجح ويبرز حيثما وجد . فمدار النجاح والفلاح توفر القدرة والحيوية والنشاط فى المرء . وفى هذا الموضوع قال رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم : «خياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام». أى أن العرب الذين كانوا فى الصدر والمقدمة فى المجتمع العربى الجاهلى ظلوا وجوهاً ورؤساء فى المجتمع العربى الإسلامى، وأن الذين كانوا نجوما وكواكب قبل الإسلام ظلوا كذلك فى ظل الإسلام . فالإسلام الحنيف وفر للجميع أقوياء وضعفاء تكافؤ الفرص، وفك القيود والأغلال من أيدى المستضعفين المساكين وأرجلهم ووضعهم جميعاً فى ميدان السباق فتقدم الصفوف من كان متقدما من قبل وظل متخلفاً من كان متخلفاً فى العصر الجاهلى .

ومن أمثلة ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعمر بن الخطاب وسعد بن أبى وقاص . فقد كانوا وجوهاً ورؤساء وفى طليعة القوم فى العصر الجاهلى وظلوا كذلك فى ظل الإسلام . ولم لا نقول إن عنترة العبسى استطاع ببطولاته وقوة شخصيته أن يخرج من مصاف العبيد الأرقاء إلى مدار السادة الأعزاء . أن يفرض احترامه وشخصيته على أهله وغير أهله فى العصر الجاهلى .

فليس من العدالة ولا من المنطق المساواة بين العالم والجاهل ولا بين الصالح والطالح ولا بين الطيب والخبيث ولا بين النابه والخامل . فالعدالة تقضى بوجوب تفضيل العالم على الجاهل والطيب على الخبيث والنابه المثمر على الخامل العقيم كما قال الله تعالى :

« قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » .

والعدل يقتضى توفير تكافؤ الفرص وحق التقاضى والحياة الحرة الكريمة للجميع أقوياء وضعفاء ، وأغنياء وفقراء ، مبصرين وعميان .

والعدالة تنص على وضع الرجل المناسب فى المكان المناسب ، وتبنى النوابغ الموهوبين على حد سواء ، ومساعدتهم على تفتح مواهبهم وطاقاتهم واستثمارها لصالحهم وصالح المجتمع .

والعدالة تتطلب ألا يكون فى مواقع القيادة والمسئولية إلا الأكفاء القادرون علماً وعقلا وخلقاً .

والعدالة تقضى أن يكون الجميع سواسية كأسنان المشط فى نظر القانون وفى ساحة القضاء ، وأن يكون مقياس التفاضل الاجتماعى الوحيد بين المواطنين هو العلم والفهم والخلق والإنتاج وليس الغنى والجاه والنفوذ وما إلى إلى ذلك من مظاهر فارغة . عملا بقوله تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

والعدالة تقتضى أن ترعى الدولة أفرادها كما ترعى الأم أبناءها فتوزع عليهم بالتساوى رعايتها وحنانها ولكنها تفضل أكثرهم علماً وفهماً وأكبرهم عقلا وأحسنهم أخلاقاً وإنتاجاً وأعظمهم خدمة لها كما قال رسول الله محمد (صلى الله عليه وسلم) : « خير الناس أنفعهم للناس » .

والمجتمع العادل يمنع الاستغلال والاحتكار والانتهازية وتوزع ثرواته وخيراته على أبنائه كل على قدر اجتهاده ونشاطه وعطائه لمجتمعه .

طلب السلطة والمال

السلطة تعنى الملك والقدرة والنفوذ . ومن شأن صاحب السلطة أن يكون قادراً على تسيير الأمور وتوجيهها ، وخدمة الخاصة أو خدمة المصلحة العامة . وعلى عمل الخير واحقاق الحق والعدل ودفع الشر والباطل والظلم أو على ارتكاب الشر والأذى والعدوان. والسلطة أنواع وأشكال منها سلطة قضائية وسلطة بوليسية وسلطة عسكرية وسلطة سياسية وسلطة مالية . والسلطة لها أكثر من وسيلة وأداة فمن وسائلها المنصب الحساس والمال والجاه والقوة المادية والمعنوية .

والسلطة نافعة مفيدة للفرد والناس إذا أحسن استغلالها واستخدمت فى فعل الخير وإقامة الحق والعدل ، وتصير ضارة مؤذية إذا أسيء استخدامها واستغلت فى الشر والباطل والظلم ، وقضاء مآرب خاصة وإشباع متع وشهوات شخصية . والإنسان يحب بطبعه وفطرته التسلح بالسلطة لقضاء مصلحة خاصة أو خدمة مصلحة عامة أو ليتخذ منها فرصة للزعامة والوجاهة والنفوذ . ولا يتعفف عن حملها إلا كل ضعيف قاصر عن بلوغها . ولكل قاعدة شواذ .

والسلطة محك طباع الناس وميزان عقولهم . فصاحب الطبع الكريم والعقل الراجح إذا تولى سلطة أحسن استغلالها واستخدامها فى فعل الخير والحق وخدمة الناس . ولم يصبه بطر ولا غرور ولا صلف . أما السخيف اللئيم فإنه إذا صار ذا سلطة ونفوذ اغتر وبطر وفجر وكفر واستغل سلطته فى خدمة نفسه وقضاء حاجاته الشخصية وفى اقتراف الأذى والظلم والعدوان .

والرغبة فى تولى السلطة والسعى للوصول إليها لون من ألوان الطموح . والناس فى موقفهم من السلطة ثلاثة أنواع : نوع يسلك طريق الصراحة والوضوح للوصول إليها ويفصح عن رغبته فى الحصول عليها . ونوع ثان يخفى ما فى نفسه من رغبة وطمع فى تسلمها ويسعى إليها باسم المصلحة العامة وفى الخفاء ومن وراء ستار . والزهاد المنطوون على أنفسهم يزهدون فيها قولا وعملا ولا يسعون إليها إما لشعورهم بالعجز والقصور عن بلوغها وإما لزهدهم فى مظاهر الحياة المتنوعة من مال وجاه وسلطة ونفوذ ونحو ذلك . وفى رأيي أن الذى لا يتستر فى سعيه للوصول إلى السلطة خير من الذى يتقنع فى جريه وراءها . ومن الذى يزهد فيها ويعزف عنها . فالمواطن الذى يتولى سلطة ويحسن استخدامها فى خدمة أمته وبلاده أكثر نفعا للناس وأقدر على التأثير فى سير الأمور ومجرى الحياة فى مجتمعه من الذى لا يملك سلطة عن قصور

عنها أو زهد فيها . فالأول موقفه إيجابي من الحياة أما الثاني فموقفه سلبي منها .

وليس عيباً أو خطأ أن ينهض زعيم ويصارح الناس برغبته في تولي مركز السلطة والمسئولية ليخدم أمته ووطنه، ولكن العيب هو أن يسعى المواطن للسلطة ليخدم نفسه وليستغلها للوجاهة والزعامة والاثراء والتسلط والإيذاء .

وليس من العيب أيضاً أن يسعى المرء إلى الغنى والثراء في نطاق الكسب الحلال وحفظ كرامة النفس وماء الوجه ولكن العيب أن يحصل عليه بكل طريقة وبأى ثمن ، وأن يتخذه غاية وهدفاً لا وسيلة وأداة ، وأن يعتبره فوق القيم الإنسانية من شرف وعزة وكرامة وفضيلة وحرية وانفاق في سبيل الله ونحو ذلك . فالمال من وسائل القوة والسلطة والنفوذ ومن أسباب العزة والحياة الحرة الكريمة.والفقر ضعف وذل وبؤس وشقاء وتخلف وجهل ومرض . والغنى خير من الفقر . ألم يقل رسول الله محمد (صلى الله عليه وسلم) : « أن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس » وقال كذلك عليه الصلاة والسلام : « كاد الفقر أن يكون كفراً » . وقال الإمام على بن أبي طالب كرم الله وجهه . « لو كان الفقر رجلا لقتلته » .

هيبة الحكم والدولة

يحدثنا التاريخ أن الدول ما بنيت وعلت وازدهرت إلا على أيدى رجال اتصفوا بالعقل والأخلاق الكريمة وعلى رأسها الشجاعة والحزم والعدالة والأمانة والتضحية والإيثار وخدمة الشعب وحب الوطن . وبذلك كسبوا محبة الناس وفازوا بثقتهم وأحاطوا أنفسهم بهالات خالدة من الهيبة والجلال والاحترام فى حياتهم ومماتهم .

ويحدثنا التاريخ أيضاً أن هذه الدول ماضعفت وانحلت وانهارت إلا فى عهود حكام كانوا أشباه رجال اتصفوا بالطيش والسفه والتخاذل والانغماس فى الملذات والشهوات . وبذلك اكتسبوا مقت الناس لهم وتحقيرهم لهم فى حياتهم ومماتهم، ومازالوا صفحات سوداء ونقاط ضعف فى تاريخ شعوبهم وبلادهم .

وهناك حكام اتصفوا بالقوة الظالمة والغطرسة والاستبداد والحمق فجلبوا لبلادهم الشر والخراب ولاقوا عواقب وخيمة . وبذلك اكتسبوا لوم الناس لهم وسخطهم عليهم فى وجودهم وغيابهم .

ويحدثنا تاريخ العرب والمسلمين أن الدولة العربية الإسلامية

التى أرسى قواعدها رسول الله (محمد صلى الله عليه وسلم) ، وأكمل بناءها الخلفاء الراشدون والخلفاء الصالحون فى الدولتين الأموية والعباسية قد آلت وراثتها فيما بعد إلى أشخاص ضعاف العقول مرضى النفوس والقلوب تحللوا من مبادىء الإسلام السامية وأخلاقه العالية . فضعفت فى أيامهم الدولة العربية الإسلامية وانحلت وانقسمت إلى شعوب ودويلات وأوطان ، ومن ثم أخذت تنهال على العرب والمسلمين النكبات والغزوات كغزوات التتار والصليبيين والاستعمار الغربى والصهيونية .

وكان أولئك الحكام الضعاف وما زالوا صغاراً مذمومين فى نظر الناس والتاريخ .

ولقد حفل تاريخ العرب والمسلمين بشخصيات عربية إسلامية فذة نالت علوا فى الحياة وفى الممات . وكانت ومازالت محاطة بهالات من النور والهيبة والجلال ، وعلى رأسها رسول الله محمد (ص) وخلفاؤه الراشدون .

أجل ! إن سير هؤلاء العظماء الأفذاذ تعلمنا كيف تكون العظمة الحقة والهيبة الحقيقية الخالدة لكل حاكم مسئول !

إن أى حاكم مسئول لا تكون له هيبة وجلال لدى الناس

إلا بكسب محبتهم له وثقتهم به .. ولا تكتسب محبة الشعب وثقته إلا بخدمة الأمة وبناء الوطن .

ولكن كيف تخدم الأمة ويبنى الوطن ؟

تخدم الأمة ويبنى الوطن بالسير فى طريق الديمقراطية وإطلاق الحريات العامة كحرية القول والكلمة، لا باتباع طريق الاستبداد والحكم الفردى وخنق الحريات وتكميم الأفواه والبطش والإرهاب . فالشعب المغلوب على أمره ، والمحروم من حرية الكلمة والنقد شعب ذليل مخنوق محروم من الحرية والاستقلال .

وتخدم الأمة ويبنى المجتمع بإحقاق الحق وإقامة العدل الاجتماعى وتوفير الأمن والنظام وسيادة القانون .

ولا يمكن بناء مجتمع قوى سليم إلا بالعلم والأخلاق . والعلم جسد الكيان الاجتماعى والأخلاق روحه ، ولا جسد بلا روح ولا روح بلا جسد .

وتخدم الأمـــة ويبنى الوطن بالبعد عن المظاهر الكاذبة والشكليات الفارغة كالترف والفخفخة والتطبيل والتزمير والضرب على وتر الألقاب والمناصب. ولا يهتم بالمظاهر والشكليات إلا السذج أصحاب العقول الصغيرة .

وخلاصة القول أن أى حكم لا يستمد هيبته وقوته وإجلاله

إلا من ثقة الشعب به والتفافه حوله ومشيه معه ، ولا يكون ذلك إلا بخدمة الشعب وبناء الوطن .

ولا يخـــدم الشعب ولا يبنى الوطن حكم ضعيف متخاذل، ولا حكم إرهابى ظالم . بل يخدمه ويبنيه حكم قوى رحيم عادل يستمد قوته وعزته من قوة شعبه وعزة وطنه ، ولا قوة لأى حكم ولا عزة له ولا نجاح إلا بالشعب . والحكم الذى يعمل على قهر الشعب وإذلاله سيقهره الله بالشعب ويذله عاجلا أو آجلا .

مقياس الصدق والشرف والاخلاص

الإيمان بالله حقاً ما وقر فى القلب وصدقه العمل .

ويقاس صدق المرء وإخلاصه بسلوكه وعمله لا بقوله وكلامه . وفى هذا المعنى قال رسول الله محمد (صلى الله عليه وسلم) : « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأشكالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » . والمؤمنون الصادقون يقولون ما يفعلون ويفعلون ما يقولون ، والمنافقون الكذابون يقولون ما لا يفعلون، ويعملون ما لا يقولون . وقد وصف الله تعالى المنافقين بقوله : « كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » .

وذلك يعنى أن مقياس الإيمان والصدق والإخلاص والشرف، وما إلى ذلك من أخلاق كريمة وصفات حميدة هو السلوك والعمل وليس الكلام والادعاء . فلو كان الإيمان بالكلام والإدعاء لصار المنافقون أكثر إيمانا من المؤمنين حقاً ؛ لأن المنافقين أكثر تظاهراً بالإيمان وادعاء له من المؤمنين .

ولو كان الشرف والفضيلة بالتبجح والادعاء لصارت النساء العاهرات أكثر شرفاً وعفة من النساء الشريفاء العفيفات ، لأن

المرأة العاهرة أعلى صوتا وأطول لسانا من المرأة الشريفة عند الحديث عن الشرف والعفاف .

ولو كانت الوطنية بالكلام والادعاء الصار الخونة العملاء أكثر وطنية من الأحرار الشرفاء لأن الخائن العميل أكثر ادعاء للوطنية وأكثر تشدقا بها من الوطنى الحر .

ولو كان الصدق بالقول والثرثرة لكان الكذاب أكثر صدقا من الصادق الصدوق ، لأن التشدق بالصدق من شأن الكذوب وليس من طبع الصدوق .

ولو كان الحياء بالتصنع والادعاء لكان المرء الذى لا يخجل ولا يستحي أكثر حياء وخجلا من المرء الذى يخجل ويستحى لأن الحيي الخجول لا يدعى الحياء ولا يتكلفه فى حين ترى الوقح الصفيق كثير الادعاء به والتكلف له .

ولو كان العلم والفهم بالكلام والادعاء لصار الجاهل المغرور أكثر علماً وفهماً من العاقل العالم ؛ لأن المغرور أكثر ادعاء للعلم والفهم من العاقل .

وأهل الظلم والباطل أكثر ادعاء للعدل والحق من أهل العدل والحق .

وظاهرة ادعاء الشرف والوطنية والأمانة والتبجح بها نراها قوية منتشرة فى ميدان السياسة لدى أدعياء الوطنية والخونة العملاء المنحرفين عن طريق شعوبهم .

فمن المشتغلين فى السياسة من يعجبك قوله ومنظره ويسوءك فعله ومخبره .

ومن رجال السياسة من يقتل القتيل ويمشى فى جنازته ويذرف عليه دموع التماسيح ، ومن رجال السياسة من يلبس مسوح الديمقراطية والشورى والحرية وهو مستبد ظالم يخنق الأصوات الحرة ويكمم الأفواه الناطقة بالحق ويحبس الأنفاس المتصاعدة ، ويكبل الشعب ويلقى بأحراره فى غياهب السجون ، وتراه يصدر القرارات العادلة والقوانين المنصفة والدساتير الديمقراطية ، ولكنه يبقيها حبراً على ورق ويلفها ويطويها ويرميها فى سلة المهملات ، والعبرة فى تنفيذ القوانين والقرارات والدساتير والعمل بها لا فى إصدارها وإعلانها .

وأكثر الحكومات بعداً عن الديمقراطية والشعبية والحرية الحكومات التى تسمى نفسها حكومات ديمقراطية شعبية حرة ، وذلك من قبيل مدح النفس ، ومعروف أن مادح نفسه كذاب .

ومن رجال الحكم والسياسة من يدعى أنه راعى الشعب وخادمه

وحارسه وهو فى الحقيقة ذئب عقور . وخادم نفسه فقط ومن طراز « حاميها حراميها » .

ومن أهل السياسة من يزعم أنه يضحى بمصلحته الخاصة فى سبيل المصلحة العامة ، وهو فى الواقع لا يهمه إلا تحقيق مصلحته الشخصية .

ومن رجال السياسة من يتبجح بمحبة الشعب له ووقوفه معه والشعب يمقته وينبذه ولا يتصور رؤية ظله ولا يلتف حوله إلا طغمة انتهازية استغلالية مرتزقة مثله .

وما أكثر المظالم والجرائم السياسية التى ارتكبت وترتكب ، وما أكثر الأحرار الذين سجنوا أو قتلوا باسم المحافظة على الأمن والنظام وسيادة القانون ! وما أكثر أبناء الشعب الذين أزهقت أرواحهم ظلماً وعدوانا باسم الشعب ! وما أكثر الخيانات الوطنية التى اقترفت باسم الوطن ! وغالباً ما تجد الخونة العملاء أكثر كلاماً وأعلى صوتاً وأطول لسانا عند الحديث عن الشعب والوطن. وترى الشعارات التى يرفعونها وينادون بها أكثر بريقا ولمعانا وزخرفة من من شعارات الوطنيين الأحرار . وتراهم يتهمون الشرفاء بالداء الذى فيهم .

وهناك صنف من رجال السياسة والحكم يظهر الزهد فى كرسى

الحكم . وإذا ما اختبرته عملياً وجدته يتمسك به تمسك داء السرطان بجسم المريض المصاب به . ولا يتركه إلا مرغما مكرهاً شأنه فى ذلك شأن السرطان الذى لا يتخلص المريض منه إلا بعملية جراحية .

ومن رجال السياسة من يدس السم فى العسل ويرسل الرسالة الملغومة ، « ويعطيك من طرف اللسان حلاوة ويروغ منك كما يروغ الثعلب » .

ومن البديهى أن يفعل هـذا الصنف من رجال السياسة ذلك ويتبعوا سياسة مبطنة بالغش والنفاق ، إذ لا يعقل أن يكونوا صريحين سافرين فى أقوالهم وأفعالهم وتصرفاتهم ، ويقولوا للناس صراحة أنهم يفعلون ما يفعلون لخدمة أنفسهم وتحقيق مصالحهم الخاصة . فلابد أن يكونوا منافقين متسترين بالمصلحة العامة وباسم الشعب والوطن فيما يقولون ويفعلون . ومتنكرين بملابس التمثيل والمسرح لإشباع أنانيتهم وأطماعهم وخدمة أنفسهم ومصالحهم الذاتية باسم الشعب والوطن والمصلحة العامة العليا ، ويجنون على الوطنيين الأحرار باسم الأمن والنظام وسيادة الدولة .

وما أكثر الممثلين المسرحيين على مسارح السياسة والوطنية فى البلاد المتخلفة المتأخرة وخاصة فى بلادنا العربية ، وبالطبع لا يخفى ذلك على المواطن الواعى المستنير .

وأكثر الحكام والمسئولين العرب يتظاهرون بالدعوة إلى الوحدة العربية ، ويرفعون شعارات وطنية وقومية براقة لخطف الأبصار وتخدير الأعصاب والاستهلاك المحلى وامتصاص سخط الجماهير ، وهم فى الحقيقة لا يؤمنون بما يرفعون من شعارات قومية وحدوية ، ويقولون ما لا يفعلون. ويشكلون عقبات كأداء فى طريق تعاون الأمة العربية واتحادها ، ويحاربون الوحدة العربية الشاملة فى سبيل مناصبهم وألقابهم ومصالحهم الشخصية .

كل ذلك يدعو إلى القول بأن المقياس الصحيح لشرف المرء وصدقه ووطنيته سواء كان سياسياً أو غير سياسى هو سلوكه وأعماله وتصرفاته وليس أقواله ولا ادعاءاته ولا تصريحاته .

فهـــرس

رقم الايداع بدار الكتب ٧٧/٤٤٥٧